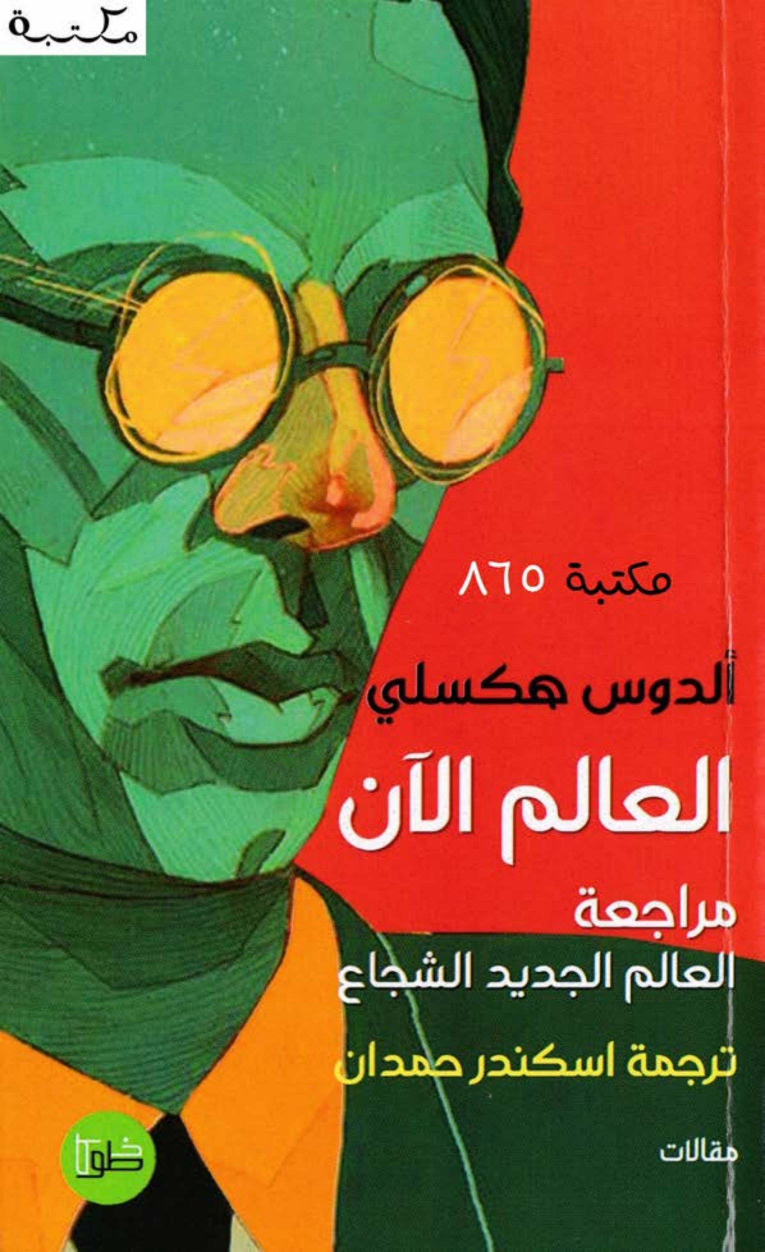

مكتبة
مكتبة ٨٦٥
ألدوس هكسلي
العالم الآن
مراجعة
العالم الجديد الشجاع
ترجمة اسكندر حمدان
مقالات

مراجعة
العالم الجديد الشّجاع

العالم الآن



خطوط وظلال

للنشــر والتـوزيـع

الأردن، عمّان، جبل الحسين، بناية (٢٠)

تلفون: ٥٧٤٦٢١٨ ٧٩ ٩٦٢+ - ٤٦٥١٨٤٦ ٦ ٩٦٢+

email: dar0otot@gmail.com

ص.ب: ١١١٩٠، عمّـان ٩٢٥٢٢٠ الأردن

مراجعة العالم الجديد الشّجاع - ألدوس هكسلي

ترجمة وتقديم: اسكندر حمدان - الطبعة الأولى، ٢٠٢٢

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي:

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٤٢٩٢/ ٨/ ٢٠٢١)

٨٤٤,٩

هاكسلي، الدوس

مراجعة العالم الجديد الشجاع / الدوس هاكسلي، ترجمة اسكندر حمدان

.ـ عمان: خطوط وظلال للنشر والتوزيع ٢٠٢٢

(١٦٨) صفحة

ر.إ.: (٤٢٩٢/ ٨/ ٢٠٢١)

الواصفات: /المقالات الأدبية//الأدب الفرنسي//الأدب المترجم/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الرقم المعياري الدولي: ISBN: 978-9923-40-417-1

ألدوس هكسلي

مراجعة العالم الجديد الشّجاع

العالم الآن

ترجمة وتقديم
اسكندر حمدان

مكتبة | 865
سُر مَن قرأ





تذهب دار خطوط للنشر والتوزيع إلى أمداء طَموحةٍ عبر الانتصار للنصوص الإبداعية المتجاوزة، وإيلاء الفعل الجماليّ اهتمامًا كبيراً بكونه فَخًّا بصريًّا، ولَذّةً كامِنةً لِصِفات الكتابِ الذي سيوقع القارئَ في لَذّة الصورةِ و تمثُّلاتها المعرفية المتحركة.

نقارب بين ثقافاتٍ مختلفةٍ من خلال الترجمة، مؤمنين بأن الاختلاف عافية للقارئ والمبدع معا.

خطوط حبر يفيض في كل الحقول .....

الإهداء

إلى العقل فيك على أمل أن يستيقظ

عن الكاتب

ألدوس هكسلي، كاتب ومفكّر وشاعر بريطاني. ولد عام ١٨٩٤ في غودالمينج، بالمملكة المتحدة في عائلة من المثقّفين والمفكّرين. هو ابن الكاتب ليونارد هكسلي، ومديرة المدرسة الابتدائية جوليا أرنولد. كان جدّه لأبيه، توماس هنري هكسلي، عالم طبيعة مهمًّا، وزميلًا لتشارلز داروين، كما كان من أكبر المدافعين عنه وعن نظريته في التّطوّر. تخصّص والده في علم الأعشاب وتكرّس للكتابة، بينما كانت والدته تدير مدرسة «هيلسايد» الابتدائية، بعد انتهائها من دراسات أدبية جامعية متقدّمة. أمّا شقيقه جوليان فقد كان أيضًا عالم أحياء، وصاحب نظريات تطوّرية وحداثية. سنة ١٩٠٨، فقد ألدوس وهو في سنّ الرّابعة عشرة كلّا من والدته إثر مرضٍ عضال، ثمّ شقيقته «روبرتا» بعد حادث سيّارة؛ وكما لو أنّ ذلك لم يكن كافيًا، اكتملت مأساته بانتحار شقيقه تريف، سنة ١٩١٤.

في سن السّادسة عشرة، بالكاد بعد بدئه لدراسته في علم البيولوجيا، أُصيبَ هكسلي الشّاب بالتهاب في شبكية العين تركه شبه ضرير. وكنتيجة لذلك، اضطرّ للتّخلي عن مشروع دراسة الطّب بعد أن استعاد بصرَه جزئيًا لكن بشكل لا يسمح له الولوج في الحياة العملية ولا ممارسة الطّب بشكل لائق. في تغيير جذري لمساره، قرّر إذن دراسةَ الأدب الإنجليزي في كلية «باليول» في أكسفورد، وبدأ أولى كتاباته ومحاولاته الشّعرية. نشر أوّل مجموعة شعرية له سنة تخرّجه، أي ١٩١٦. لكنّ

التّغيير ذاك وتخلّيه عن حلمه في انتهاج مسار علمي ترك فيه أثرًا مريرًا لازمه طوال حياته.

سنة ١٩١٩، تزوّج من ماريا نيس، وهي لاجئة بلجيكية أنجب منها ابنه ماثيو. في أوائل العشرينات من القرن الماضي، نشر رواياته الأولى، «الكروم الأصفر» و«الحلقة المفرغة». سنة ١٩٣١، كتب في أقلّ من أربعة أشهر رواية «العالم الجديد الشّجاع» التي ستصبح مرجعًا مستقلّا في الأدب الاستباقي، وستصنّف كواحدة من أفضل روايات القرن العشرين. استقرّ سنة ١٩٣٧ في الولايات رفقة زوجته، وعاش في هوليوود، حيث امتهن كتابة السّيناريوهات. اكتشف هناك التّأمل، وفلسفة فيدانتا الهندية، والموادّ المهلوسة، كلّها تجارب كان لها تأثيرات عديدة على كتاباته المستقبلية. بعد وفاة زوجته ماريا بعد معاناة مع مرض السّرطان سنة ١٩٥٥، تزوّج بعازفة كمان ومعالجة نفسية إيطالية الأصل، لورا أرتشيرا.

رجع هكسلي سنة ١٩٥٨ مجدّدًا لزيارة روايته من خلال كتابة «مراجعة العالم الجديد الشّجاع»، وبدل أن يكون ذلك العمل تكملة للرّواية، جاء على شكل مقالات تناولت تحليلا دقيقًا للنّظرية المستقبلية التي كانت له عن العالم. ثمّ عاد بعدها من جديد للكتابة الخيالية، من خلال روايته «الجزيرة» التي تعتبر آخر عمل صدر سنةً قبل وفاته.

شاءت الأقدار أن يتوفّى ألدوس هكسلي متأثّرًا بسرطان الحنجرة، في ٢٢ نوفمبر عام ١٩٦٣، اليوم الذي اغتيل فيه الرّئيس كينيدي.

عن الكتاب

بعد مرور حوالي ثلاثين عامًا من نشر روايته «العالم الجديد الشّجاع»، يعود هكسلي في هذا الكتاب من خلال اثني عشر مقالًا إلى موضوع آليات الأنظمة الشّمولية، طبيعتها، ومستقبل البشرية بشكل عام. كانت نظرته حينها متشائمة إلى حدّ بعيد، ودعونا لا ننسى أنّ الحدث الذي يفصل الرّواية عن المراجعة هو أحد أعظم وأفظع تجليّات البشرية وطبيعتها، الحرب العالمية الثّانية.

في الفصول التّالية، يتطرّق من خلال تحليلاته إلى المشاكل التي تترصّد الإنسانية، بقاءها، وأكثر من كلّ شيء، حرّيتَها. خاصّة أنّ ما اكتُسب من ديمقراطية أصبح الآن مهدّدا بنظام اجتماعي جديد تهيمن عليه أوليغارشيا وحكومات بيروقراطية، تساعدها في مهمّتها كبريات الشّركات التي تسعى للرّبح ولبسط هيمنتها على جميع القطاعات الحسّاسة.

عند قراءة مجموعة المقالات هذه، من الصّعب تصوّر أنّ عمرها يزيد عن السّتين سنة، ذلك أنّ معظم الأطروحات التي تتطرّق لها هي مشاكل قائمة لحدّ السّاعة، بل وبشكل أعنف؛ وكأنّ الرّواية، وبعدها مراجعتها كانتا العالم المستقبلي الحقيقي، على عكس توقّعات أورويل في روايته ١٩٨٤، وسيثير هكسلي هذه النّقطة بالذّات في عديد المواضع وعديد المرّات ليؤكّد أنّ نبوءته هي التي تحوّلت إلى حقيقة لا نظام الأخ الأكبر كما تصوّره أورويل. لينتهي الكتاب بمجموعة من الحلول والمقترحات

التـي تعرفهـا البشريـة منـذ الأزل، وترفـض تطبيقهـا أو تتجاهلهـا لأسـباب تتجاوزنـا كأفـراد، ومجتمعـات.

«مجتمـعٌ لا يقـضي معظـمُ أعضائـه جـزءًا كبـيرًا مـن وقتهـم في عيش الواقـع الآنيّ الرّاهـن أو في مسـتقبلٍ يمكـن توقُّعـه بشـكل منطقـي، بـل في مـكانٍ آخـر، في عـوالمَ أُخـرى لا تمّـت للحقيقـة بصلـة، في الرّياضـة والعـروض والمسلسـلات التّلفزيونيـة، وفي عـوالم الأسـاطير والخيـال الميتافيزيقـي، هـو مجتمـعٌ سـيجد صعوبـةً في مقاومـة تجـاوزات أولئـك الذيـن سـيتلاعبون بـه ويسـيطرون عليـه...

... مـع فهـمٍ أفضـل لفـنّ وعلـم التّلاعـب، سـيتعلّم ديكتاتوريـو المسـتقبل بشـكل لا يـترك مجـالًا للشـك كيفيـة دمـج هـذه التّقنيات مـع وسـائل الإلهـاء المسـتمر، والتـي تهـدّد الآنَ في الغـرب بـأن تُغرِقَ في بحـرِ اللّامعنـى الدعايـةَ العقلانيـة التـي تُعـدّ ضرورةً للحفـاظ عـلى الحريّـة الفرديـة، والإبقـاء عـلى المؤسّسـات الدّيمقراطيـة».

مـع التّقـدّم في قـراءة هـذا الكتـاب، سـيصدمنا التّشـابه بـين العـالم الجديـد الشّجاع، وعـالم آخـر ليـس بالغريـب عنّـا، عـصر التّواصـل الآنيّ، عـصر اللّـذة والمتعـة والنّسـيان العمـدي؛ العـالم الآن.



تمهيد

يمكـن لجوهـر الفكـر الجميـل بالـذّات أن يصبـح مـادّة الكـذب نفسَـها. مهـما كانـت أناقتـه، ومهـما كانـت ملاءمتـه للذّاكـرة، لا يمكـن للإيجـاز أبـدًا -وذلـك في طبيعـة الأشـياء- أن يفسِّر جميـع الحقائـق التـي تشـكّل وضعيـةً معقّـدة. في موضـوع كهـذا، لا يمكننـا أن نوجز إلّا عـن طريـق الإغفـال والتّبسـيط، وهـما طريقتـان تسـاعداننا بالتّأكيـد عـلى فهـم – لكـن، في الكثـير مـن الحـالات عـلى فهـم خاطـئ - للصّيـغِ التـي حاكهـا المُختـصِر بـذكاء، لا عـلى فهـم الحقيقـة الهائلـة المتشـعّبة التـي جُـرِّدت منهـا تلـك المفاهيـم بتعسّـف بالـغ.

صحيـحٌ أنّ الحيـاة قصـيرة والمعرفـة بـلا حـدود: فـلا أحـد يملـك الوقـت لمعرفـة كلّ شيء، وعمليًـا نحـن مجـبرون عمومًـا عـلى الاختيـار بـين شرح قصـير جـدًّا أو لا شرحَ عـلى الإطـلاق.

الاختصـار شرّ لا بـدّ منـه، وعـلى الـذي يمارسـه أن يحـاول الحصـول عـلى أفضـل النّتائـج مـن خـلال إنجـازه لمهمّـة تبقـى بالرّغـم مـن أنّهـا بالأسـاس سـيّئة، أفضـلُ مـن لا شيء. عليـه أن يتعلّـم التّبسـيط دون بلـوغ حـدّ التّشـويه. كـما عليـه أن يركّـز كلّ انتباهـه عـلى العنـاصر الأساسـية لوضعيـة مـا، دون أن يُهمـل الكثـير مـن الإضافـات التـي قـد تُغيِّر في نهايـة الأمـر إدراكَ الحقيقـة كاملـة. بهـذه الطّريقـة، ربّمـا لا ينجـح المُختـصِر في تقديـم الحقيقـة كاملـة (لأنّهـا تتعـارض وتتناقـض مـع الإيجـاز في معظـم المواضيـع المهمّـة)، إلّا أنّـه سـيقدّم بالتّأكيـد شـيئًا أكـبر بكثـير مـن التّقريبـات الخطـيرة التـي تُعَـدّ التّـصرّفَ الشّـائع في الفكـر.

مشكلة الحرية وأعدائها عويصة، وما كَتبتُ عنها هو بالتّأكيد شديد الإيجاز بطريقة لا تسمح لهذه المادّة أن تُعامَل كما تستحقّ، لكنّني على الأقلّ تطرّقت ولو سطحيًا إلى عديد الجوانب منها. ربّما يكون بعضٌ من تلك الجوانب قد بُسِّط بشكل مبالغ فيه، لكن المحاولات المتتالية هذه تتراكم لترسم لوحةً آملُ أن تعطي على الأقل فكرة عن اتّساع وتعقيد الفكرة الأصل.

ما ينقص هم فقط (والسّبب ليس أنّ من الممكن تجاهلهم، بل ينقصون لأسباب تتعلّق بسهولة التّطبيق، ولأنّها مواضيع سبق لي التّطرق لها ودراستها بالفعل في مناسبات أخرى) أعداءُ الحرية الميكانيكيون والعسكريون - الأسلحة و «المعدات» التي عزّزت بشدّة القفص الذي يسحق فيه أسياد العالم رعاياهم؛ والاستعدادات للحروب التي أصبحت أكثر فأكثر تدميراً، والتي لا معنى لها في الأصل كونها تعادل الانتحار. سيتعيّن على القارئ أن يضع الفصول التّالية أمام الخلفية المظلمة هذه: الثّورة والقمع في المجر، القنابل الهيدروجينية، تكلفة ما تسمّيه كلّ دولة «دفاعًا»، وأيضًا صفوفٌ لا نهاية لها لشباب دون زيّ، بيض، سود، حمر وصفر يسيرون خاضعين نحو المقبرة الجماعية.

ألدوس هكسلي

الفصل الأوّل

الاكتظاظ السّكانّي

سنة ١٩٣١، وأنا بصدد كتابة رواية «عالم جديد شجاع»، كنتُ مقتنعًا بأنّه لا يزال أمامَنا متّسعٌ من الوقت. فالمجتمع المُنظَّم بالكامل، النّظام الطّبقي العلمي، إلغاء الإرادة الحرّة عن طريق التّكييف المنهجي، العبودية التي ستُصبح شيئًا مقبولا بفضل جرعاتٍ مُنتظَمة من السّعادة المُستحثَّة اصطناعيًا بالمواد الكيماوية، التّصرف الحميد المرغوب الذي تكرّره كلّ ليلة دروس التّلقين أثناءَ النّوم- كلُّها أشياءٌ كانت ستحصل طبعًا وتتحقّق، لكن ليس في زمني الذي أعيش فيه، ولا حتّى في زمن أحفادي. نسيتُ بالتّحديد التّاريخَ الذي تدور فيه الأحداث المُسجّلة في رواية «عالم جديد شجاع»، لعلّه في فترة ما في القرن السّادس أو السّابع بعد «فورد[1]». نحن الذين عشنا في الرّبع الثّاني من القرن العشرين الميلادي، كنّا بكلّ تأكيدٍ سكّانَ عالمٍ مُروِّع ومخيف؛ لكنّ كابوس سنوات الكساد تلك مُختلفٌ جذريًا عن كابوس المستقبل الذي رُسِمَ في «عالم جديد شجاع». تَمثَّل كابوسنا نحن في افتقارٍ تامّ للنّظام، بينما تمثّل كابوسهم في القرن السّابع بعد «فورد» في تنظيمٍ مفرط. منطقيًا كانت عمليّةُ الانتقال من تَطرُّفٍ لآخر ستتطلب فاصلًا زمنيًا طويلًا، لذلك تخيّلت أنَّ طرفًا

---

١ في الرّواية، يبدأ التّأريخ بالقرن الفوردي، وهو الذي يدوّن فيه فورد اختراعاته، أي القرن التّاسع عشر. أي أنّه يضع أحداث روايته بين العام ٢٦٠٠ والعالم ٢٧٠٠ للميلاد.

ثالثًا من الإنسانية -هو الأكثر حظًا- سيستفيد على أكمل وجهٍ من ميزات العالَمَيْن- العالم الفوضوي لليبيرالية، والتّنظيم المبالغ فيه للعالم الجديد الشّجاع الذي لم تَترُك فيه الكفاءةُ الفعّالة الإنتاجية أيَّ مجالٍ للحريّة، ولا للمبادرة الشّخصية.

بعد مرور سبعة وعشرين عامًا، في هذا الرّبع الثّالث من القرن العشرين الميلادي، وقبلَ انتهاء القرن الأوّل الفوردي بكثير، أشعرُ أنّني أقلّ تفاؤلاً بأشواطٍ مقارنةً بتفاؤلي حين كَتبتُ «عالم جديد شجاع». تتحقّق التّنبؤات التي قمت بها العام ١٩٣١ في وقتٍ مبكّر جدًّا مقارنة بتوقّعاتي؛ والفاصل الزّمني المُبارَك بين الفوضى والتّنظيم المبالَغ فيه لم يبدأ بعد، فأيُّ علاماتٍ قد تدلّ أنّه سيبدأ لم تظهر أصلًا. في الغرب، صحيحٌ أنّه لا يزال كلّ من الرّجل والمرأة يتمتّعان على الصّعيد الفردي بقدرٍ كبير من الحرية؛ لكن حتّى في تلك البلدان قديمةِ العهد بالحكم الدّيمقراطي، يبدو أنّ تلك الحريّة، وحتّى الرّغبة في تلك الحرية قد بدأت في الأفول. في بقيّة أنحاء العالم، اختفت حرية الأفراد بالفعل، أو من الواضح أنّها على وشك الاختفاء. خرجَ من المستقبل الآمن البعيد كابوسُ النّظام الشّمولي الذي حدَّدْتُه زمنيًا في القرن السّابع بعد «فورد»، وها هو ذا ينتظرنا الآن، شديدَ القرب، عندَ المنعطف القادم.

كانت رواية جورج أورويل، ١٩٨٤، إسقاطًا مستقبليا مضخّمًا لحاضرٍ تواجدت فيه السّتالينية، وإسقاطًا لماضٍ شديد القرب شهد ازدهارَ النّازية. بينما كُتِبَت رواية «عالم جديد شجاع» قبل تولّي هتلر مراتب السّلطة العليا في ألمانيا، ولم يكن حينها الطّاغية الرّوسي قد حذا حذوه بعد. في العام ١٩٣١، لم يكن

الإرهـاب الممنهـج بعـدُ الحقيقـةَ الهوسـية المعـاصرة التـي أصبـح عليهـا سـنة ١٩٤٨، والدّيكتاتوريـة المسـتقبلية التـي رسـمتُها في عالمـي المتخيَّـل أقـلُّ وحشـيةً بفـرقٍ شاسـع عـن الدّيكتاتوريـة المسـتقبلية التّـي رُسِـمت ببراعـة وعبقريـة مـن قِبَـل «أورويـل». في سـياق العـام ١٩٤٨، بـدت روايـة ١٩٨٤ مُقنِعـةً وأيضًـا واردةَ الحـدوث بشـكلٍ مخيـف. لكـن، بعـدَ كلّ شيء، مـا الطّغـاةُ سـوى بـشر يموتـون، ومصير الظّـروف أن تتغـيّر. حَرَمَـتْ التّطـوراتُ التـي أحرزتهـا روسـيا مؤخّـرًا، والتّقـدم الحديـث في العلـوم والتّكنولوجيـا كتـابَ «أورويـل» مـن مقاربتـه الشـنّيعة للحقيقـة. وبالطّبـع، سـتجعل حـربٌ نوويـةٌ توقّعـات الجميـع مجـرّدة تمامًـا مـن المعنـى. لكـن، لـو افتراضنـا أنّ القـوى العظمـى سـتتمكّن بطريقـة مَـا مـن كبـح نفسـها عـن تدميرنـا، يمكننـا القـول أنّ الحـال يبـدو الآن وكأنّ الاحتـمالات ترجـح لصالـح وضـعٍ شـبيه بـ «عـالم جديـد شـجاع» أكـثر مـن روايـة ١٩٨٤.

عـلى ضـوء كلّ مـا تعلّمنـاه مؤخّـرًا عـن سـلوك الحيـوان بشـكل عـام، وسـلوك الانسـان بشـكلٍ خـاص، فقـد بـدا واضحًـا أنّ التّحكـمَ مـن خـلال المعاقبـة عـن السّـلوك غـير المرغـوب فيـه أقـلُّ فعاليـةً، عـلى المـدى الطّويـل، مـن التّحكـم مـن خـلال تعزيـز السّـلوك المرغـوب بـه بالمكافـآت؛ وأنّ الحكومـة التـي تنتهـج التّخويـف أقـلُّ فعاليّـةً مـن الحكومـة التـي تنتهـج التّلاعـب غـير العنيـف بالمحيـط وأفـكار وأحاسـيس الرّجـال والنّسـاء والأطفـال. تضـع العقوبـة حـدًّا مؤقتًـا للسّـلوك غـير المرغـوب فيـه، لكنّهـا لا تُنقِـص مـن ميـول الضّحيـة مـن الانغـماس فيـه بشـكلٍ دائـم. وعـلاوةً عـلى ذلـك، قـد تكـون تداعيـات العقـاب الثّانويـة النّفسـية منهـا والجسـدية غـير

مرغوب فيها تمامًا مثل السّلوك الذي عوقب الفردُ بسببه. إذ يُكرَّس جزءٌ كبير من العلاج النّفسي للتّكفّل بنتائج العقاب السّابق المُضعِفة، والمعادية للمجتمع.

المجتمعُ الذي وصِف في رواية ١٩٨٤، هو مجتمع يُسَيْطَر عليه بشكلٍ شبه حصري باستعمال العقاب، وكذا الخوف من العقاب. في العالم المتخيَّل لخرافتي، يظلّ العقاب نادرًا، وإن ورد فيكون على العموم معتدلًا. تتحقّق السّيطرة شبه الكاملة التي تمارسها الحكومة من خلال التّعزيز المنهجي للسّلوك المرغوب فيه، باللّجوء إلى شتّى أنواع التّلاعب غير العنيف، الجسدي والنّفسي معًا، وكذا التّقييس الجيني. أطفالُ الأنابيب، والسّيطرة المركزية على التّناسل ليست ربّما أشياء مستحيلة الحدوث؛ لكنّ من الواضح تمامًا أنّنا نحن البشر سنبقى، ولفترة طويلة قادمة، نوعًا وَلودًا يتكاثر عشوائياً. ولأسباب عملية، يمكن أن يتمّ استبعاد التّقييس الجيني. لكن سيستمرّ المجتمع في الخضوع للسّيطرة على مستوى مرحلة ما بعد الولادة - باستعمال العقاب كما في الماضي، لكن وبدرجة كبيرة ومتزايدة من خلال الأساليب الأكثر فعالية، والتي تتمثّل في المكافأة والتّلاعب العلمي الممنهج.

في روسيا، بدأت دكتاتورية ستالين المطابقة لرواية ١٩٨٤، والتي تجاوزها الدّهر، تفسح المجالَ لشكل من الاستبداد أكثر حداثة. في المستويات العليا من المجتمع الهرمي السوفييتي، بدأ تعزيز السّلوك المرغوب فيه يحلّ محلّ الأساليب الأقدم للسّيطرة من خلال معاقبة السّلوك غير المرغوب فيه. يتقاضى المهندسون والعلماء، المعلّمون والإداريون رواتب جيّدة مقابل العمل

الجيّد، وتُفرَض عليهم ضرائب قليلة جدًّا لدرجة تجعلهم دائمًا تحت التّحفيز المستمر للقيام بعمل أفضل، وبالتّالي الحصول على مكافآت أكبر. في بعض المناطق، يتمتّعون بحريّة التّفكير كما أرادوا، أو حتّى فعل ما يحلو لهم. ينتظرهم العقاب فقط عندما يبتعدون عن الحدود المنصوص عليها في عوالم الأيديولوجيا والسّياسة. ولأنّهم مُنِحوا ذلك القدر من الحريّة المهنية، فقد حقّق المعلّمون الرّوس، العلماء والتّقنيون نجاحا باهرًا. لا يتمتّع من يعيش بالقرب من قاعدة الهرم السّوفيتي بأيٍّ من الامتيازات الممنوحة للأقلية المحظوظة، أو تلك الموهوبة بشكل خاص. أجورهم هزيلة، وهم يدفعون في شكل أسعار ملتهبة حصّةً كبيرة من الضّرائب التي لا تتناسب مع ما يجنون من ربح. أمّا المساحة التي يُسمح لهم بالتّصرف فيها بحريّة فهي ضيّقة بشكل كبير، إذ يسيطر مسيّروهم عليهم من خلال العقاب والتّهديد بالعقاب، أكثر من استعمالهم للتّلاعب غير العنيف أو تعزيز السّلوك المرغوب فيه عن طريق المكافأة. يجمع النّظام السّوفييتي عناصرًا من رواية ١٩٨٤ ، وعناصرَ تنبّؤية عمّا حدث بين الطّبقات العليا في رواية «عالم جديد شجاع».

في انتظار ذلك، يبدو أنّ القوى المجرّدة، والتي يظهر ألّا سيطرةَ لنا عليها تقريبًا تدفع بنا جميعًا نحو اتّجاه كابوسٍ على شاكلة «عالم جديد شجاع»؛ ويتمّ تسريع هذا الدّفع المجرّد بطريقة مقصودة من قبل ممثّلي المنظّمات التّجارية والسّياسية التي وضعت عددًا من التّقنيات الجديدة للتّلاعب بأفكار ومشاعر الحشود، وذلك لمصلحة أقليّة ما. ستُناقَش تقنيات التّلاعب

هـذه في فصـولٍ لاحقـة. حاليًـا، دعونـا نركّـز اهتمامنـا عـلى تلـك القـوى المجـرّدة التـي تجعـل الآن مـن العـالم مكانًـا غـير آمـن، ولا مناسـب للديمقراطيـة عـلى الإطـلاق، مـكان غـير مرحّـبٍ فيـه البتّـة بالحريـة الفرديـة. فيـما تتمثّـل هـذه القـوى يـا تـرى؟ ولمـاذا أحـرز الكابـوس الـذي توقّعتُـه في القـرن السّـابع الفـوردي تقدّمًـا سريعًـا في اتجاهنـا؟ عـلى الإجابـة عـن هـذه التّسـاؤلات أن تبـدأ حيـثُ بـدأَت حيـاةُ أكـثر المجتمعـات تحـضّرًا - عـلى مسـتوى البيولوجيـا.

في أوّل يـوم عيـدٍ مـن أعيـاد الميـلاد المسـيحية، كان تعـداد سـكّان كوكبنـا يقـرب حـوالي المائتـين وخمسـين مليـون نسـمة -وهـو أقـلّ مـن نصـف عـدد سـكّان الصّـين في الوقـت الحـالي. بعـد مـرور سـتّة عـشر قرنًـا، ومـع وصـول الآبـاء الحجّـاج إلى «بليمـوث روك»، ارتفـع عـدد البـشر إلى مـا يزيـد قليـلاً عـن خمسـمائة مليـون نسـمة. ومـع حلـول وقـت التّوقيـع عـلى إعـلان الاسـتقلال، تجـاوز عـدد سـكّان العـالم حـدود السّـبعمائة مليـون نسـمة. في عـام ١٩٣١، وأنـا بصـدد كتابـة «عـالم جديـد شـجاع»، بلـغ العـدد أقـلّ بقليـل مليـارَيْ نسـمة. أمّـا اليـوم، وبعـد مـرور سـبعة وعشريـن عامًـا فقـط، فقـد أصبـح هنالـك مليـاران وثمانمائـة مليونًـا منّـا عـلى سـطح الأرض. ومـاذا عـمّا سـيكون عليـه الحـال غـدًا؟ تُعتـبَر البنسـلين والــ «دي. دي.تي[٢]»، والميـاه النّظيفـة سـلعًا رخيصـة، تتجـاوز تأثيراتُهـا عـلى الصّحـة العامّـة بكثـيرٍ تكلفتَهـا. حتّـى أنّ أفقـر الحكومـات غنيّـةٌ بمـا يكفـي لتوفّـر لرعاياهـا القـدرَ الـكافي مـن وسـائل السّـيطرة عـلى المـوت. أمّـا تحديـد النّسـل فهـي مسـألةٌ مختلفـة تمامًـا. السّـيطرة

---

٢ DDT : Dichloro-diphényl-trichloréthane
مبيد حشرات قوي وشديد الفعالية، أصبح استعماله ممنوعًا الآن. (المترجم)

على الموت شيءٌ بالإمكان توفيره لشعبٍ بأكمله من قِبَل عددٍ قليل من الفنّيين العاملين لصالح حكومةٍ حسنة النّوايا؛ أمّا تحديد النّسل فيعتمد على تعاون شعبٍ بأكمله. كما يجب أن يتّبعه عدد لا يحصى من الأشخاص الذين يتطلّب منهم الأمرُ ذكاءً أكبر، وقوّة إرادة أكثرَ ممّا يمتلكه معظم الأميّين الذين يكتظّ بهم العالم، الذي (في الحالة التي سيتمّ استخدام الوسائل الكيميائية أو الميكانيكية لمنع الحمل) يتطلّب أيضًا إنفاق أموالٍ أكثرَ ممّا يستطيع مُعظم هؤلاء الملايين تحمّل إنفاقه الآن. زد على ذلك، وفيما لا وجود في أيّ مكانٍ لأيّ تقليد ديني ضدّ السّيطرة على الموت؛ تنتشر التّقاليد الدّينية والاجتماعية ضدّ تحديد النّسل بشكلٍ كبير. ولهذه الأسباب جميعها، يتمّ السّيطرة على الموت بسهولة بالغة، بينما يتم تحقيق تحديد النّسل بصعوبة كبيرة. وبذلك، فقد انخفضت معدّلات الوفيات في السّنوات الأخيرة فجأةً بشكلٍ مذهل؛ بينما معدّلات المواليد إمّا ظلّت عند مستواها المرتفع القديم، أو أنّها إذا انخفضت، فبشكلٍ بسيط وبنسبة بطيئة الوتيرة بمكان. نتيجةً لذلك، تتزايد أعدادُ البشر الآن بسرعة تتجاوز سرعةَ أيِّ وقت مضى في تاريخ النّوع البشري.

علاوة على هذا، الزّيادات السّنوية نفسها في تزايد. ترتفع بانتظام، وفقًا لقواعد الفائدة المشكّلة؛ كما ترتفع أيضا بطريقة غير منتظمة مع كلّ تطبيقِ مجتمعٍ متخلّف تِقَنيًا لمبادئ الصّحة العامّة. في الوقت الرّاهن، تصل الزّيادة السّنوية في سكّان العالم إلى حوالي ٤٣ مليونًا. ما يعني أنّ البشرية تضيف لنفسها كلّ أربع سنوات ما يعادل عدد سكّان الولايات المتحدّة

الحالي، وكلّ ثماني سنوات ونصف ما يعادل العدد الحالي لسكّان الهند. بمعدّل الزّيادة السّائد بين فترة ولادة المسيح وفترة وفاة الملكة «إليزابيث الأولى»، استغرقَ الأمرُ ستّة عشر قرنًا لتُضاعِف ساكنةُ المعمورة عددَها؛ أمّا بمعدّل الزّيادة هذا فسيتضاعف في أقلّ من نصف قرن. وسيحدث هذا التّضاعف السّريع المذهل لأعدادنا على كوكب أكبرُ مناطقه المرغوب فيها والأكثر إنتاجية هي بالفعل مكتظّة بالسّكان، كوكبٌ تتآكل تربته بسبب الجهود المحمومة لمزارعين رديئين يرغبون دائمًا في تحصيل المزيد من الغذاء، كوكبٌ يُبدِّد رأسُ ماله المعدني المتاح بسهولة بالإسراف المتهوّر لبحّارٍ مخمور يبدّد أجرتَه المتراكمة.

في «العالم الجديد الشّجاع» المتواجد في خرافتي، تمّ حلّ مشكلة الأعداد البشرية مقارنة بما يوجد من موارد طبيعية بشكلٍ فعّال؛ تمّ فيه حساب الرّقم الأمثل لسكّان العالم، وكذا الحفاظ على عددهم عند ذلك الرّقم (وهو ما يقلّ بقليل عن ملياري نسمة، لو أنّي أتذكّر الأمر بشكلٍ صحيح) جيلًا بعد جيل. في العالم الحقيقي المعاصر، لم تُحَلّ مشكلة السّكان. بل وعلى العكس من ذلك أصبحت أخطر، ومصدرَ خوفٍ أكبر مع مرور كلّ عام. كلّ مآسي عصرنا السّياسية والثّقافية والنّفسية ستُلعَب على هذه الخلفية البيولوجية القاتمة. مع اقتراب القرن العشرين من نهايته، ومع المليارات الجديدة التي تُضاف إلى المليارات الموجودة (سيكون هناك أكثر من خمسة مليارات ونصف بحلول الوقت الذي ستبلغ فيه حفيدتي سنّ الخمسين)، ستتقدّم هذه الخلفية البيولوجية بإصرار أكثر من أي وقت مضى، مهدِّدةً بشكلٍ أكبر من أيّ وقت مضى، لتتموضع في مقدّمة ومركز خشبة المسرح التّاريخية. مشكلة التّزايد الهائل في الأعداد مقارنة بتوفّر الموارد الطبيعية، والاستقرار الاجتماعي ورفاهية الأفراد – هنا يكمن الإشكال المركزي للبشرية؛ وسيظلّ بالتّأكيد الإشكالَ المركزي لقرن إضافي، أو لعدّة قرون بعدها ربّما. من المفترض أن يكون عصرٌ جديدٌ قد بدأ في 4 أكتوبر 1957 . لكن في الواقع، وتحت الظّرف الرّاهن، كلّ حديثنا المستطرد بعد سبوتنيك هو خارجٌ عن الموضوع، بل وغير منطقي بالأساس. عندما يتعلّق الأمر بمسألة حشود البشر، فلا علاقة للأزمنة القادمة بعصر الفضاء؛ فهي ستكون أزمنة الاكتظاظ السّكاني. هل يكمن حلّ هذه المشكلة في الفضاء واكتشافه؟ الجواب واضحٌ، إنّه

جوابٌ بالنّفي. قد يعود الاستقرار على سطح القمر بنفع عسكري على الأمّة التي تقوم بذلك؛ لكنّه لن يحرّك ساكنًا مهما كان ليجعل الحياة أقلَّ قسوةً أو تُحتمل بشكلٍ أفضل، خلال الخمسين عامًا التي سيستغرقها عددنا الحالي ليتضاعف، لفائدة مليارات سكّان العالم المتكاثرين، والذين يعانون من نقص التّغذية. حتّى في مستقبلٍ تصبح فيه الهجرة إلى المرّيخ ممكنة، وحتّى لو قَبِلَ عددٌ كبير من الرّجال والنّساء بدافعٍ كافٍ من اليأس اختيارَ عيش حياةٍ جديدة تحت ظلّ ظروفٍ مماثلة لتلك السّائدة على جبلٍ يبلغ ارتفاعه ضعفَ ارتفاع جبل إيفرست، فما الفارق الذي يمكن لهذا أن يُحدِثه؟ خلالَ فترة القرون الأربعة الماضية، أبحرَ عديد البشر من العالم القديم نحو الجديد. لكن لم يتمكّن لا رحيلهم ولا تدفّق المواد الغذائية والمواد الخام العائد من حلّ مشاكل العالم القديم. وبالمثل، فشحنُ عددٍ قليلٍ فائضٍ من البشر إلى المرّيخ (بتكلفة في النّقل والتّطوير تصل عدّة ملايين الدّولارات للفرد الواحد) لن يضيف شيئًا لحلّ مشكلة ضغوط تزايد السّكان على كوكبنا. وببقائها دون حلّ، ستجعل هذه المشكلة جميعَ مشاكلنا الأخرى غير قابلةٍ للحلّ. بل أسوأ من ذلك، سيخلق ذلك ظروفًا تجعل الحريّة الفردية والمتطلّبات الاجتماعية الأساسية للمنهج الدّيمقراطي مستحيلةَ الوجود، وحتّى مستحيلة التّصور. لا تنشأ الدّيكتاتوريات جميعها بالطّريقة ذاتها؛ وهناك العديد من المسالك المؤدّية لعالمٍ شبيه بـ «العالم الجديد الشّجاع»؛ لكنّ المسلك الذي ننتهجه اليوم قد يكون أقصرها وأوسعها على الإطلاق، المسلك الذي تسهّله أعداد السّكان الهائلة، والزّيادات المتسارعة. دعونا نستعرض بإيجاز أسبابَ الارتباط الوثيق هذا بين تزايد كبيرٍ جدًّا في أعداد البشر، وضع فلسفات استبدادية، وظهور أنظمة حكم شمولية.

بينما تضغط أعدادٌ كبيرة ومتزايدة بشدّة على الموارد المتاحة، يصبح الوضع الاقتصادي للمجتمع الذي يمرّ بهذه المحنة أكثر خطورة بمراحل. وهذا صحيح ومقترن، خاصّة بالنّسبة لمختلف المناطق التي ستشهد انخفاضًا في معدّل الوفيات بفضل استعمال البنسلين والمبيدات (DTT) والمياه النّظيفة، والتي لم يرافق فيها انخفاضٌ مماثل متوافق في معدّل الولادات تلكَ الوسائل. في أجزاءَ من قارّة آسيا، وفي معظم مناطق أمريكا الوسطى والجنوبية،

يتزايد عدد السّكان بسرعة هائلة لدرجة أنهم سيتضاعفون في غضون ما يزيد عن العشرين عامًا بقليل. لو كان بالإمكان زيادة إنتاج الغذاء، المواد المصنّعة، المنازل، المدارس والمعلّمين بمعدّل أكبر من زيادة أعداد البشر، فسيكون ممكنًا تحسين ظروف حشود البائسين الذين يعيشون في تلك البلدان المتخلّفة والمكتظّة بالسّكان. لكن للأسف، لا تفتقر هذه الدّول إلى الآلية الزّراعية والقاعدة الصّناعية القادرة على تفعيل هذه الآلية فحسب، بل تفتقر أيضًا إلى رأس المال الضّروري لإنشاء قاعدة صناعية كتلك. رأس المال هو ما يتبقّى بعد تلبية احتياجات السّكان الأساسية. لكن لا تتمّ تلبية الاحتياجات الأساسية لمعظم سكّان البلدان المتخلّفة بشكل كامل. مع نهاية كلّ عام، بالكاد يتبقّى أيّ شيء، وبالتّالي فلا وجود تقريبًا لأيّ رأس مال مُتاح لإنشاء القاعدة الصّناعية والزّراعية، والتي بواسطتها يمكن تلبية رغبات السّكان. بالإضافة إلى وجود نقصٍ حادّ في كلّ البلدان المتخلّفة للقوى العاملة المؤهّلة التي لا يمكن من دونها تسيير قاعدة عصرية صناعية أو زراعية. المَرافق التّعليمية الحالية غير كافية ولا ملائمة؛ وكذا الموارد المالية والثّقافية، بغرض تحسين القواعد الموجودة بالسّرعة التي يتطلّبها الموقف. وفي هذه الأثناء، يتزايد عدد سكان بعضٍ من هذه البلدان المتخلّفة بمعدّل ٣ ٪ سنويًا.

دُرِست وضعيّتهم المأساوية في كتابٍ بالغ الأهمّية، نُشِر عام ١٩٥٧ - بعنوان «المائة عام القادمة»، من تأليف البروفيسور «هاريسون براون» و«جيمس بونر» و«جون وير»، من معهد كاليفورنيا للتّكنولوجيا. لكن كيف تتعامل الإنسانية مع مشكل

الزّيـادة السّريعـة في الأعـداد؟ الجـواب هـو: بطريقـة سـيّئة للغايـة. تشـير الأدلّـة (التـي بالإمـكان التّحكـم فيهـا) بقـوّة إلى أنّ حالـة الفـرد البسـيط، وذلـك في معظـم البلـدان المتخلّفـة قـد سـاءت بشـكلٍ ملحـوظ خـلال نصـف القـرن الأخـير. زادت سـوء تغذيـة السّـكان، وأصبـح عـددٌ أقـلّ مـن السّـلع الاسـتهلاكية متاحًـا لـكلّ فـرد، كـما أُبطِلـت وعمليًـا كلّ محاولـةٍ لتحسـين الوضـع بسـبب الضّغـط الشّـديد للنّمـو السّـكاني المسـتمر.

«في كلّ مـرّة تصبـح فيهـا الحيـاة الاقتصاديـة للأمّـة غـير مسـتقرّة وهشّـة، تضطـر الحكومـة المركزيـة لتحمّـل أعبـاء مسـؤوليات إضافيـة مـن أجـل الفائـدة العامّـة؛ ويتعـيّن عليهـا وضـع خطـطٍ مفصّلـة دقيقـة للتّعامـل مـع المواقـف الحرجـة؛ وأيضًـا فـرض قيـود متزايـدة عـلى أنشـطة وحرّيـات رعاياهـا؛ وعنـد الحالـة المرجّحـة للغايـة التـي يـؤدّي فيها تدهـور الأوضـاع الاقتصاديـة إلى اضطرابات سياسـية أو تمـرّد مفتـوح، يتوجّـب عـلى الحكومـة المركزيـة التّدخـل للحفـاظ عـلى النّظـام، وكـذا بهـدف تعزيز سـلطتها. وهكذا، سـتتركّز السّـلطة أكـثر فأكـثر بـين أيـدي المـدراء التّنفيذيـين ومسـيّريهم البيروقراطيـين. لكـن، تجعـل طبيعـةُ السّـلطة حتّـى أولئـك الذيـن لم يسـعوا إليهـا -بـل فُرِضـت عليهـم- يستسـيغونها، لتروقهـم بعدهـا وتعجبهـم. «لا تَدْفَـع بنـا نحـو الإغـراء»، هـذا مـا نطلبـه عندمـا نصـلّي - ونطلـب ذلـك لسـببٍ وجيـه؛ ذلـك أنّـه في حالـة إغـراء البـشر بشـكلٍ مفـرط، أو لفـترة طويلـة جـدًا، هـم بشـكلٍ عـام يستسـلمون. الدسـتور الديمقراطـي عبـارة عـن أداة أوجِـدَت لمنـع الحـكّام المحليّـين مـن الاستسـلام لتلـك الإغـراءات الخطـيرة بشـكلٍ خـاص، والتـي تنشـأ عندمـا يتركّـز كـمّ هائـلٌ مـن السّـلطة بـين

عـددٍ قليـل جـدًّا مـن الأيـادي. دسـتورٌ كهـذا فعّـالٌ بشـكلٍ جيّـد في البلـدان التـي تحـترم الإجـراءات الدّسـتورية بطريقـة تقليديـة، كـما هـو الحـال في بريطانيـا أو الولايـات المتحـدة. أمّـا في الحالـة التـي يكـون فيهـا التّقليـد الجمهـوري أو الملـكي المحـدود ضعيفًـا، فليـس بإمـكان أفضـل الدّسـاتير عـلى الإطـلاق منـع السّياسـيين الطموحـين مـن الاستسـلام بكامـل سـعادة وسرور لإغـراءات السّـلطة.

لكـن، في أيّ بلـدٍ تبـدأ فيـه الأعـداد الكبـيرة بالضّغـط بشـدّة عـلى المـوارد المتاحـة، لا يمكـن لهـذه الإغـراءات إلّا أن تظهـر. يـؤدّي الاكتظـاظ السّـكاني إلى انعـدام الأمـن الاقتصـادي والاضطرابـات الاجتماعيـة. ويـؤدّي الاضطـراب وانعـدام الأمـن إلى ممارسـة مزيـدٍ مـن السّـيطرة مـن قبـل الحكومـات المركزيـة، وتعزيـز وتمديـد سـلطتها. في غيـاب تقليـد دسـتوري، مـن المحتمـل أن تمـارَس هـذه السّـلطة المتزايـدة بطريقـة ديكتاتوريـة. ولـدى وضـعٍ كهـذا كلُّ حظـوظ التّحقّـق حتّـى لـو لم تُخلَـق الشّـيوعية مـن قبـل. لكـنّ الشّـيوعية ابتُكِـرت. وبالنّظـر إلى هـذه الحقيقـة، فـإنّ احتـمالَ أن تـؤدّي زيـادةُ عـدد السّـكان مـن خـلال الاضطرابـات إلى الدّيكتاتوريـة يصبـح حقيقـةً مؤكّـدة. يمكننـا المراهنـة متأكّديـن مـن كسـب الرّهـان، أنّـه وبعـد عشريـن عامًـا مـن الآن، سـتكون جميـع دول العـالم المتخلّفـة المكتظّـة بالسّـكان تحـت شـكلٍ مـن أشـكال الحكـم الشّـمولي - وقـد يكـون ذلـك مـن طـرف الحـزب الشّـيوعي.

لكـن كيـف سـيؤثر هـذا التّطـور عـلى البلـدان الأوروبيـة المتقدّمـة عـلى الصّعيـد الصّناعـي ذات الكثافـة السّـكانية العاليـة والتـي لا تـزال ديمقراطيـة؟ إذا كانـت الدّيكتاتوريـات المُشـكّلة حديثًـا

معاديةً لها، وإذا توقف التّدفق الاعتيادي للموادّ الخام من البلدان المتخلّفة بمنهجيّة متعمّدة، فستجد دول الغرب نفسها بالفعل في وضعٍ سيّء للغاية. سينهار نظامها الصّناعي، ولن تسمح التّكنولوجيا البالغة التّطوّر والتي أتاحت لها لغاية الآن إمكانية إعالة عددٍ من السّكان أكبر بكثير ممّا يمكن لمواردها دعمه بالموارد المُتاحة محلّيًا، بحمايتها بعد ذلك من عواقب تواجد عدد كبير جدًا من الأشخاص في مساحةٍ شديدة الصّغر. ولو حدث ذلك فعلًا، فقد يتم استخدام القوى الهائلة التي فرضتها الظّروف غير المواتية على الحكومات المركزية لفرض ذهنية الدّيكتاتورية الشّمولية.

في الوقت الرّاهن، ليست الولايات المتحدة دولةً مكتظة بالسّكان؛ لكن إذا ما استمرّ عدد السّكان في التّزايد بالمعدّل الحالي (الأعلى من معدّل الزّيادة في الهند، لكنّه يبقى ولحسن الحظ أقلّ بكثير من معدّل الزّيادة الحالي في المكسيك أو غواتيمالا)، فقد تصبح مشكلة الاكتظاظ حجر عثرة مع بداية القرن الحادي والعشرين. حاليًا، لا يمثّل الاكتظاظ السكاني تهديدًا مباشرًا لحرية الأمريكيين الشّخصية؛ لكنّه يبقى مع ذلك تهديدًا غير مباشر، وخطرًا محدقًا. لو دفع الاكتظاظ السّكاني بالبلدان المتخلّفة نحو تبنّي الشّمولية في نظمها، ولو تحالفت تلك الديكتاتوريات الحديثة مع روسيا، فيصبح حينها وضع الولايات المتّحدة العسكري أقلّ أمانًا، وسيتعيّن عندها عليها تكثيف الاستعدادات للدّفاع أو الهجوم الانتقامي. كما نعلم جميعًا، لا يمكن للحرّية أن تزدهر في بلد يقف دائمًا على قدم وساق للاستعدادات الحربية، أو على وشك خوض غمار

الحرب بشكل مستمر. تبرّر الأزمة الدّائمة السّيطرةَ الدّائمةَ على الجميع، وعلى كلّ شيء، من طرف أجهزة الحكومة المركزية. والأزمة الدّائمة هي الوضعية التي علينا توقّعها في عالم ينتج فيه التّضخم السّكاني حالةً تصبحُ فيها الدّكتاتوريةُ تحت رعاية الشّيوعية مسألةً حتمية.

الفصل الثّاني:

الكمّ، النّوع والأخلاق

في العالم الجديد الشّجاع الذي تخيّلت، كان كلٌّ من عِلْم «تحسين النّسل» وتطبيق تفاقم «الخلل الجيني» يُمارَسان بشكلٍ منهجي. في مجموعة واحدة من الزّجاجات، كانت تُمنَح لبويضات متفوّقة بيولوجيًا، مخصَّبة بحيوانات منوية متفوّقة بيولوجيًا أيضًا، أفضل معاملة ممكنة قبل الولادة، قبل أن تُصفَّق في الأخير وتُصنَّف على أنّها «بيتا»، ألفا» أو حتّى «ألفا +»، وفي مجموعة زجاجات أخرى، كانت تُعرَّض بويضات متدنيّة بيولوجيًا، مخصَّبة بحيوانات منوية متدنيّة بيولوجيًا، لعملية بوكانوفسكي (ستّة وتسعون توائمًا متطابقة نتاج بويضة واحدة)، وتعالَج قبل الولادة بالكحول وسمومٍ بروتينية متنوّعة أخرى. المخلوقات المصفّقة من ذلك الخليط تكاد تكون في الأخير مخلوقات أدنى بشريّةً؛ لكنّها تبقى قادرةً على تأدية أعمالٍ لا تتطلّب أيّ مهارة، عندما يتمّ تكييفها وبرمجتها بالشّكل الصّحيح، وتنفيس الضّغط عنها بتمكينها من الوصول الحرّ والمتكرّر للجنس الآخر، والتي يتم إلهاؤها باستمرار عن طريق التّرفيه المجّاني، وتعزيز أنماط سلوكها الجيّد بجرعات يومية من «السّوما»، وبذلك يمكن الوثوق من أنّها لن تمثّل أيّ مشاكل لقادتها.

في النّصف الثّاني من القرن العشرين هذا، لا نقوم بفعل أيّ شيء منظّم أو ممنهج حيال تكاثرنا؛ ولكن بطريقتنا العشوائية

وغير المنظّمة هذه، لسنا نجعل الكوكب مكتظًا بالسّكان فحسب، بل نحن أيضًا، على ما يبدو، نقوم بكلّ شيء كي تكون هذه الأعداد الهائلة من النّوع البيولوجي الرّديء. في الأوقات السّابقة، نادرًا ما كان يعيش الأطفال المصابون بعيوب وراثية كبيرة، أو حتّى الطّفيفة منها. أمّا اليوم، وبفضل تحسين الظّروف الصّحية، الأدوية الحديثة والوعي الاجتماعي، يصل معظم الأطفال المولودين بعيوب وراثية إلى مرحلة النّضج، ويضاعفون من نوعهم. في ظلّ الظّروف السّائدة الآن، سيقابل كلّ تقدّم في الطّب تقدّمًا مماثلًا في معدّل بقاء أفرادٍ أصيبوا ببعض الخلل الجيني على قيد الحياة، وسيزداد عددهم أيضًا. وعلى الرّغم من الأدوية ذات المفعول الخارق، والعلاجات المتطوّرة (بل في الحقيقة، و بمعنى ما، بالتّحديد بسبب هذه الأشياء)، لن تُظهِر الصّحة البدنية لعامّة السّكان أيَّ نوع من التّحسن، بل على العكس، قد تتدهور وتتراجع. وإلى جانب انخفاض متوسّط الصّحة، قد يرافق ذلك انخفاضٌ في معدّل الذّكاء. وبالفعل، فإنّ بعض السّلطات المختصّة مقتنعة بأنّ هذا التّدهور قد وقع بالفعل، وهو مستمرّ بالحدوث. يكتب الدّكتور «و.هـ. شيلدون» : «تحت ظروفٍ مَرنةٌ وغير منظّمة في الوقت نفسه، ستتفوّق في العدد على أرقى عناصرنا عناصرٌ أدنى منها مستوًى من جميع النّواحي... من المألوف في بعض الدّوائر الأكاديمية أن يُطمئَن الطّلاب إزاء القلق بشأن فارق معدّلات المواليد بالقول ألّا أساسَ له من الصّحة؛ وأنّ هذه المشاكل هي مجرد مشاكل اقتصادية أو تعليمية أو دينية أو ثقافية فقط، أو شيء من هذا القبيل. إنّ هذا لتفاؤلٌ أعمَى حسب «مبدأ بوليانا». الجُنوح الإنجابي شيءٌ بيولوجي وأساسي». ثمّ يضيف قائلا أنّ: «لا أحدَ

يعـرف إلى أيّ مـدى تـدنّى متوسّـط معـدّل الـذّكاء في هـذا البلـد (ويعنـي بـه الولايـات المتحـدة) منـذ عـام ١٩١٦، منـذ أن حـاول «تيرمـان» توحيـد معنـى معـدّل الـذّكاء IQ.»

في بلـدٍ متخلّـف بكثافـة سـكّانية عاليـة، يحصـل فيـه أربعـة أخماس سـاكنيه عـلى أقـلّ مـن ألفَيْ سـعرة حراريـة في اليـوم، ويتمتّـع فيـه خمسـهم فقـط بنظـام غـذائي مناسـب، هـل بإمـكان المؤسّسـات الدّيمقراطيـة أن تنشـأ بشـكلٍ عفـوي؟ ولـو فُرِضَـت مـن الخـارج أو مـن الأعـلى، فهـل لهـا أيُّ فرصـة في البقـاء؟

الآن، دعونـا نتفحّـص حالـة المجتمـع الغنّـي، الصّناعـي والدّيمقراطي، والـذي يتراجـع فيـه معـدّلا الـذّكاء واللّياقـة البدنيـة باسـتمرار بسـبب الممارسـة العشـوائية -والفعّالـة رغـم ذلـك- لتفاقـم «الخلـل الجينـي». إلى أيّ مـدى يمكـن لمجتمـعٍ مثـل هـذا الحفـاظ عـلى تقاليـد وأعـراف الحرّيـة الفرديـة والحكـم الدّيمقراطـي؟ سـيتعيّن عـلى أطفالنـا الإجابـة عـلى هـذا السّـؤال بعـد خمسـين أو مائـة عـام مـن الآن.

في انتظـار ذلـك، نجـد أنفسـنا في مواجهـة أكـبر معضلـة أخلاقيـة مقلقـة. نعلـم جيّـدًا أنّ السّـعي وراء الغايـات الجيّـدة لا يـبرّر توظيـف الوسـائل السّـيئة. لكـن مـاذا عـن تلـك المواقـف التـي أصبـح الآن تتكـرّر بشـكل كبـير، والتـي أصبـح لوسـائلها الجيّـدة نتائـجُ هـي في نهايـة المطـاف نتائـجٌ سـيّئة؟

عـلى سـبيل المثـال، نذهـب إلى جزيـرة اسـتوائية، وبمسـاعدة الـ «دي.دي.تي»، نقـضي عـلى الملاريـا، وفي غضـون سـنتين أو ثـلاث نتمكّـن بذلـك مـن إنقـاذ مئـات الآلاف مـن البـشر. مـن الجـليّ

على أنّ هذا شيءٌ جيّد. لكن الذي حدث هو أنّه تمّ إنقاذ مئات الآلاف من البشر الذين سينجبون الملايين بدورهم، ملايينٌ يستحيل إلباسهم وإسكانهم وتعليمهم وحتّى إطعامهم بشكل لائق باستخدام ما تتيحه الجزيرة من موارد. صحيح أنّه تمّ القضاء على الموت السّريع بسبب الملاريا؛ لكن جُعِلت الحياة في الوقت نفسه أكثرَ بؤسًا بسبب سوء التّغذية والاكتظاظ، وأصبح الموت البطيء المباشر بالمجاعة يهدّد أعدادًا أكبرَ من السّابق.

وماذا عن الكائنات المشوّهة خلقيًا، والتي يبقيها كلّ من الطّب الحديث وخدماتنا الاجتماعية على قيد الحياة، ويمكّنها من التّكاثر ونشر نوعها؟ من الواضح أنّ مساعدة الضّعيف أمرٌ جيد. لكن من الواضح أيضا أنّ الأسوأ من ذلك هو انتقال نتائج طفراتنا الجينية غير الملائمة لأحفادنا، والتّلوث التّدريجي للمحفوظ الجيني الذي سيتعيّن على أفراد جنسنا أن يستمدّوا جيناتهم منه. نحن على أعتاب معضلة أخلاقية، سيتطلّب إيجادُ حلٍّ وسطٍ لها كلَّ ذكاءنا وكامل إرادتنا.

الفصل الثّالث

التّنظيم المبالغ فيه

كـما سـبق وأن أشرت إليـه، يقـود أقـصر وأوسـع طريـق لكابـوسٍ شـبيه بكابـوسِ «عـالم جديـد شـجاع»، مـن خـلال زيـادة تعـداد السّـكان، البالـغ عددهـم الآن مليـاران وثمانمائـة مليـون نسـمة، والـذي سـيصبح خمسـة ملاييـر ونصف مع أواخـر القرن، وستواجه أكـبر نسـبة في البشريـة الخيـارَ بـين الفـوضى، والسّـيطرة الشّـمولية. لكـن، ليـس ضغـط الأعـداد الهائلـة المتزايـد عـلى المـوارد المُتاحـة القـوّةَ الوحيـدة التـي تدفـع بنـا نحـو الشّـمولية. فعـدوّ الحريّـة البيولوجـي الأعمـى هـذا متحالـفٌ مـع قـوًى شـديدة البـأس، تولّـدت مـن التّقـدم التّكنولوجـي المُحـرَز الـذي يعـدّ أكـبر مصـدر لفخرنـا. علينـا أن نضيـف أنّـه فخـرٌ مُـبرَّر؛ لأنّ تلـك التّطـورات ثمـارُ عبقريـة وعمـلٍ جـادٍّ دؤوب، ونتـاجُ منطـقٍ وخيـالٍ وإنـكارٍ لِلـذّات - باختصـار، هـي ثمـارُ فضائـلَ أخلاقيـة وفكريـة لا يسـعنا أن نشـعر حيالهـا سـوى بالإعجـاب. لكـن، طبيعـةُ الأشـياء هـي عـلى شـكلٍ يجعـل مـن المسـتحيل عـلى أيٍّ كان الحصـولُ عـلى أيّ شيءٍ دون مقابـل. لذلـك، يتوجّـب دفـع ثمـن ذلـك التّطـور المذهـل. في الواقـع، الأمـر شـبيهٌ بالغسّـالات المُقتنـاة السّـنة الفارطـة، لا يـزال سـدادُها قائمًـا- وكلّ قسـطٍ أعـلى مـن سـابقه. كتـب عديـد المؤرخـين وعديـد علـماء الاجتـماع وعلـماء النّفـس بإسـهاب، وبقلـقٍ عميـق، عـن الثّمـن الـذي كان عـلى الرّجـل الغـربي دفعـه، وسيسـتمر في دفعـه مقابـل التّقـدم التّكنولوجـي. وأشـاروا، عـلى سـبيل المثـال، إلى أنّـه

من الصّعب توقّع ازدهار الدّيمقراطية في مجتمعات بدأت فيها القوى السّياسية والاقتصادية تدريجيا تتركّز وتتمركز. لكن قاد التّقدم التّكنولوجي ولا يزال إلى تركيزٍ كهذا، وإلى جعل السّلطة مركزية. وبينما أصبحت آلية الإنتاج الضّخم أكثر فعالية ونجاعة، صارت تميل لأن تصبح أكثر تعقيدًا وأكثرَ تكلفة - و بالتّالي أقلّ توفّرًا لمحدودي الموارد من أصحاب المشاريع. وفوق ذلك، من الضّروري أن يرافقَ الإنتاجية الضّخمة توزيعٌ شامل؛ لكن يبرز التّوزيع على نطاق أشمل مشاكل لا يستطيع مواجهتها بشكل مُرضٍ سوى كبارُ المنتجين. في عالم إنتاجية ضخمة وتوزيع شامل، يتضرّر الإنسان البسيط الصّغير برصيده غير الكافي من رأس المال المُوظَّف ويتأذّى، لأنّ الكفّة ليست في صالحه. في تنافسه مع «الرّجل الأكبر»، سيخسر ماله وفي الأخير سيخسر حتّى وجودَه كمنتج مستقل؛ فقد التهمه «الرّجل الأكبر». مع اختفاء الإنسان الصّغير، تتركّز القوّة الاقتصادية أكثر فأكثر بين أيدي عددٍ لا ينفكّ يقلّ من الأفراد. تحت ظلّ الدّكتاتورية، ستتحكّم الدّولة في التّجارة الكبرى التي سيسهّل وجودَها التّقدمُ التكنولوجي ودمارُ الاقتصاد الصّغير - معنى هذا، أنّ من ستتحكّم فيها هي مجموعةٌ صغيرةٌ من قادة الحزب والعسكر، الشّرطة والخدم المدنيين الذين ينفّذون أوامرهم. في ديمقراطية رأسمالية كالولايات المتّحدة، يتمّ التّحكم فيها من قِبَل ما أسماه البروفيسور «س. رايت ميلز» «نخبة القوّة». توظّف «نخبة القوّة» هذه مباشرة بضع ملايين من القوّة العاملة للبلد في مصانعها، مكاتبها ومتاجرها، وتتحكّم في ملايين أخرى إضافية بإقراضها المال لتشتري به منتجاتها، وهكذا، من خلال امتلاكها لوسائل الاتصّال ووسائط الإعلام،

تؤثّر على أفكار ومشاعر وأفعال كلّ شخص تقريبًا. وللسّخرية من كلمات «ونستون تشرتشل»، لم يحدث أبدًا في التّاريخ من قبل أن تلاعَبَتْ بهذا القَدْر قلّةٌ من الأشخاص بهذا العدَد الهائل من الحشود. نحن بالفعل بعيدون كلّ البعد عن نموذج «جيفرسون» المثالي لمجتمعٍ حرٍّ بالمعنى الفعليّ للكلمة، والذي يتألّف من تسلسلٍ هرمي لوحدات تتمتّع كلّ واحدة منها بالحكم الذّاتي - «الجمهوريات الابتدائية، ثمّ جمهوريات المقاطعات، فجمهوريات الولايات، وصولًا إلى جمهورية الاتّحاد، مشكّلةً تدرّجًا في السّلطات».

نرى إذن أنّ التّكنولوجيا الحديثة قد أدّت إلى تركيز القوّة الاقتصادية والسّياسية، وإلى تطوير مجتمعٍ تسيطر عليه الشّركات الكبرى والحكومة الكبرى (بلا رحمة ولا شفقة في البلدان المستبدّة الشمولية، وبلباقة وسلاسة، وبسريّة أكبر في الدّيمقراطيات). لكن المجتمعات تتكوّن من أفراد، ولا قيمةَ لها إلّا إذا ساعدت الأفراد على تحقيق إمكاناتهم، وعيش حياة سعيدة خلّاقة ومبدعة. كيف تأثّر الأفراد بالتّقدم التكنولوجي في السّنوات الأخيرة يا ترى؟ إليكم الإجابة التي قدّمها الفيلسوف والطّبيب النفسي الدّكتور «إريك فروم» لهذا السّؤال:

«أصبح مجتمعنا الغربي المعاصر، على الرّغم من تقدّمه المادّي، الفكري والسّياسي، بشكلٍ متزايد أقلَّ ملاءمةً للصّحة العقلية، ويميل إلى تقويض وهدم الأمن الدّاخلي، السّعادة، الفكر وكذا القدرة على الحب عند الفرد؛ كما يميل إلى تحويله إلى إنسان آلي يدفع ثمن فشله على المستوى الإنساني في شكل زيادة المرض العقلي، وبيأس مخبّأ وراءَ اندافعٍ محموم نحو العمل،

وكلّ مـا يُزعَـم أنّهـا مُتعـة.»

قـد تجـد «أمراضُنـا العقليـة المتزايـدة» تعبـيرًا في أعـراضٍ عصبيـة. وتلـك الأعـراض شـديدة الوضـوح، ومزعجـةٌ فعـلًا. يقـول الدّكتـور فـروم : «لكـن دعونـا نمتنـع عـن تعريـف «سـلوكات حفـظ الصّحـة العقليـة» عـلى أنّهـا وقايـةٌ مـن الأعـراض. ليسـت أعـراضٌ كتلـك عدوّنـا، بـل هـي حليـفٌ لنـا، وتتواجـد أعـراضٌ حيـثُ يتواجـد صراع، بينـما يـدلّ الـصّراع دائمًـا أنّ قـوى الحيـاة التـي تسـعى إلى الاندمـاج والسّـعادة لا تـزال تقاتـل». أكـثر ضحايـا المـرض النّفـسي تـضرّرا هـم أولئـك الذيـن يبـدون أكـثرَ الأشـخاص طبيعيـةً. «العديد منهـم طبيعـيّ نظـرًا لكونهـم قـد تكيّفـوا بطريقـة جيّـدة جـدّا مـع نمـط وجودنـا ومعيشـتنا، لأنّـه تـمّ إسـكات صوتهـم الإنسـاني في مرحلـة جـدّ مبكّـرة مـن حياتهـم، لدرجـة أنّهـم لا يعانـون حتّـى أو يتألّمـون، كـما لا تظهـر عليهـم أعـراضٌ كالتـي تظهـر عنـد المصابـين بالعصـاب». هـم أشـخاصٌ طبيعيـون، لكـن ليـس بالمعنـى المُطلَـق للكلمـة؛ هـم فقـط طبيعيـون في علاقتهـم مـع مجتمـع هـو بالأسـاس بعيـدٌ كلّ البعـد عـن الطّبيعيـة. ومـا تكيّفُهـم المثـالي هـذا مـع مجتمـعٍ غـير طبيعـي إلّا مقيـاسٌ لمـدى مرضهـم العقلي. مـا كان لملايـين الأفـراد الطّبيعيـين بشـكل غـير طبيعـي، والذيـن يعيشـون في هـدوء دون مشـاكل في مجتمـع مَـا ليتكيّفـوا معـه لـو كانـوا بـشرًا بالكامـل، ولا يزالـون يعتـزّون بــ «وَهْـم الفرديـة»، لكـن في الواقـع، وإلى حـدّ بعيـد، انتُزِعـت منهـم كلُّ فرديـة ممكنـة. تطـوّرت مُطابَقتهـم لتصبـح شـيئًا يشـبه التّجانـس. رغـم أنّ «التّجانـس والحريّـة مفهومـان نقيضـان لا يتوافقـان. والتّجانـس والصّحـة العقليـة أيضـا لا يتوافقـان... فالإنسـان لم يُخلَـق ليكـون آليـا، وإذا

ما أصبح كذلك، فقد دُمِّرَت أسس الصّحة العقلية بالكامل».

في سياق التّطور، اجتهدت الطّبيعة أيّما اجتهاد كي لا يشابه في نهاية المطاف أيّ فرد فردًا آخر. ونحن نتكاثر في نوعنا من خلال وصل جينات الأب بجينات الأم. بالإمكان تركيب هذه العوامل الوراثية بشكل يكاد يكون غير محدود. من النّاحية الجسدية كما النّفسية، كلّ شخص منّا فريدٌ من نوعه؛ وأيّ ثقافة تسعى بدافع الفعالية أو باسم عقائد سياسية كانت أو دينية لتوحيد وتجنيس الفرد، هي بذلك ترتكب جريمة ضدّ طبيعة الإنسان البيولوجية في حدّ ذاتها.

يمكنُ تعريف العِلْم على أنّه اختزال التّعددية إلى الوحدة؛ إذ يسعى لشرح مختلف ظواهر الطّبيعة التي لا حصر لها من خلال تجاهل الطّابع الفريد لأحداث معيّنة، مركّزا على ما لديها من قواسم مشتركة، وفي النّهاية القيام بتجريد نوعٍ من «القانون» التي تكتسب من خلاله معنى، ويمكن التّعامل معها بشكل فعّال. على سبيل المثال، تسقط التّفاحات من الشّجرة، ويتحرّك القمر في السّماء. لاحظ النّاس هذه الحقائق منذ الأزمنة الغابرة. كانوا مقتنعين مع «جيرترود شتاين» بأنّ التّفاحة هي تفّاحة، في حين أنّ القمر هو القمر هو القمر (بشكلٍ لا يترك مجالا للشّك). لكن بقي لـ «إسحاق نيوتن» أن يدرك ما تشترك فيه هذه الظّواهر شديدة التّباين ظاهريًا، لصياغة نظريةٍ عن الجاذبية يمكن من خلالها شرح سلوك التّفاح، والأجرام السّماوية وكلّ شيء آخر في الكون المادّي؛ والتّعامل معه في نطاق نظامٍ فكري موحّد. وعلى النّسق ذاته، يأخذ الفنّان التّنوع والتّفرد الذي لا حصر لهما

في العـالم الخارجـي وفي خيالـه ليمنحهـما معنًـى ضمـن نظـامٍ مـن الأنمـاط التّشـكيلية، الأدبيـة أو الموسـيقية. الرّغبـة في فـرض النّظـام عنـد الارتبـاك، وإيجـاد التّناغـم في التّنافـر والتّناقـض، والوحـدة في التّعدّديـة هـي نـوعٌ مـن الغريـزة الفكريـة، دافـعٌ بـدائي وأسـاسيّ للعقـل. في مجـالات العلـم والفـنّ والفلسـفة، تأثـيراتُ مـا قـد أسـمّيه «إرادةَ التّنظيـم» هـي بشـكل أسـاسي مفيـدة. صحيـح أنّ إرادة التّنظيـم قـد أنتجـت عديـد التّوليفـات المبكّـرة المبنيـة عـلى أدلّـة غـير كافيـة، وعديـد الأنظمـة الميتافيزيقيـة واللّاهوتيـة السّـخيفة، وعديـد الأخطـاء والارتبـاك بـين المفاهيـم والواقـع، وبـين الرّمـوز، التّجريـدات وبيانـات التّجربـة المباشرة. لكـن ومهـما كانـت مؤسـفة، لا تسـبّب هـذه الأخطـاء ضررًا كبـيرًا، وبـأيّ حـالٍ مـن الأحـوال لا تسـبّبها بشـكل مبـاشر - رغـم أنّـه يحـدث أحيانًـا أن يسبّب نظـام فلسـفي سيّئُ الـضّررَ بشـكل غـير مبـاشر، مـن خـلال اسـتخدامه أفعـالًا غـير إنسـانية لا معنـى لهـا كمـبرّر. تصبـح إرادة التّنظيـم بالغـة الخطـورة حقًّـا في المجـال الاجتماعـي، وفي عالمَـيْ السّياسـة والاقتصـاد.

يصبـح هنـا الاختـزال النّظـري للتّعدديـة التـي لا يمكـن التّحكّـم فيهـا إلى وحـدة مفهومـة اختـزالًا عمليًـا للتّنـوع البـشري إلى «تجانـس غـير بـشري»، واختـزالًا للحريّـة إلى العبوديـة والخضـوع. وفي السّياسـة، مـا يعـادل نظريـةً علميـة أو نظامًـا فلسـفيًا متطـوّرًا بالكامـل هـو في الحقيقـة ديكتاتوريـة شـمولية. في الاقتصـاد، مـا يعـادل العمـل الفنّـي المركّـب بشـكل رائـع هـو المصنـع الـذي يسـيَّر بسلاسـة عـلى أحسـن وجـه حيـثُ ينسـجم العـمّال ويتوافقـون بشـكل مثـالي مـع الآلات. يمكـن لإرادة التّنظيـم أن تصنـع طغـاةً

ممّن يودّون فقط إزالةَ الفوضى وتعديل الأمور. لتستخدَم في الأخير جمالية التّرتيب كمبرّر للاستبداد.

التّنظيم شيءٌ يستحيل الاستغناء عنه؛ كونَ الحرّية لا تنشأ ليصبح لها معنى إلّا ضمن مجتمعٍ منظّمٍ ذاتيًا، متكوّنٍ من أفرادٍ متعاونين بملء إرادتهم. لكن، وعلى الرّغم من ضرورته، يمكن أن يكون في التّنظيم الهلاك والدّمار أيضًا. يحوّل التّنظيمُ المبالغ فيه الرّجالَ والنّساءَ إلى آليّين، كما يخنق الرّوحَ المبدعة الخلّاقة ويلغي حتّى إمكانية الحريّة ذاتها. كالعادة، يبقى المسارُ الآمن الوحيد هو المسار الوسط، بين طرفَيْ سياسة «عدم التّدخل» على إحدى كفّتَيْ الميزان، والسّيطرة الكاملة على الكفّة الأخرى.

خلال القرن الماضي، ترافقت تطوّراتُ التّكنولوجيا المتعاقبة مع تطوّراتٍ مماثلة في التّنظيم. وتوجّبت مطابقةُ مدى تعقيد الآلة مع مدى تعقيدِ ترتيباتٍ اجتماعية مصمَّمةٍ للاشتغال بسلاسة وكفاءةٍ تعادل تلك الخاصّة بأدوات الإنتاج المُستحدَثة. وبهدف الاندماج في هذه التّنظيمات، تعيّن على الأفراد التّجرّد من الطّابع الفردي، كما تعيّن عليهم إنكار تعدّديتهم وتنوّعهم الطّبيعي للتّطابق مع نمطٍ قياسي؛ كخلاصة، وجب عليهم بذل قصارى جهدهم ليصبحوا آلات في نهاية المطاف.

تُعزَّزُ تأثيراتُ التّجريد من الإنسانية للتّنظيم المفرط بتأثيرات التّجريد من الإنسانية للاكتظاظ السّكاني. ويجذب التّحوّل الصّناعي مع توسّعه أعدادًا متزايدة من الأفراد إلى كبريات المدن. لكنّ الحياةَ في المدن الكبرى لا تتماشى وصحّة عقلية

سليمة (يقالُ أنّ أعلى معدّلات الإصابة بمرض الفصام يتركّز بين سكّان الأحياء الفقيرة المحيطة بالمناطق الصّناعية)؛ كما لا تُعزِّزُ أيضًا نوعَ الحرية المسؤولة داخل مجموعاتٍ صغيرةٍ تتحكّم ذاتيًا في نفسها، وهو الشّيء الذي يُعتَبر الشّرطَ الأوّلَ لممارسة ديمقراطيةٍ حقيقية. يحيا الفرد في المدينة حياةَ شخصٍ مجهولٍ ونكرة، وهي بذلك حياةٌ مُجرَّدة. ولا يرتبط الأفراد ببعضهم البعض باعتبارهم شخصيّات كاملة منفصلة الكيان، بل بصفتهم تجسيداتٍ لوظائفَ اقتصادية معيّنة، أو، عندما لا يشغلون مناصب عملهم تلك، فكمجرّد أشخاصٍ مجرَّدين من حسّ المسؤولية السّاعين وراءَ التّرفيه. ومع خضوعهم لهذا النّوع من الحياة، يميلُ الأفراد إلى الشّعور بالوحدة وعدم الأهمّية، فقد جُرِّدَ وجودُهم من كلّ هدف ومعنى.

من وجهة النّظر البيولوجية، يعدّ الإنسان مُعتدِلَ النّزعة الاجتماعية، فهو ليس حيوانًا اجتماعيًا تمامًا - دعونا نقولُ أنّه مخلوقٌ يقارب الذّئب أو الفيل أكثرَ من مقاربته للنّحلة أو النّملة. في شكلها البدائي، لم تشبه المجتمعاتُ البشرية خليّةَ النّحل أو مملكة النّمل على الإطلاق؛ فقد كانت مجموعات صغيرة. الحضارة هي، ضمن أخرى، العمليةُ التي تُحوَّلُ من خلالها المجموعاتُ الصّغيرة البدائية إلى محاكاةٍ فظّة وميكانيكية لمجتمعاتِ الحشرات الاجتماعية العضوية. في الوقت الحالي، تُسرِّع ضغوطات الاكتظاظ السّكاني والتّحوّر التّكنولوجي هذه العملية. لقد أصبحت الوضعية المشابهة لنظام «مملكة النّمل» شيئا قابلاً للتّحقيق بل وحتّى، في نظر البعض، مثالًا أعلى مرغوبًا فيه. ولا داعي للقول أنّ ذلك المثال الأعلى لن يتحقّق

أبـدًا عـلى أرض الواقـع؛ فهنالـك هـوّة عميقـة تفصـل الحـشرة الاجتماعيـة عـن الثّدييـات وذوات الدّمـاغ مـن الحجـم الكبـير التـي ليسـت اجتماعيـة إلّا بشـكل معتـدل؛ ومهـما حاولـت الثّدييـات التّشـبه بالحـشرات، فالهـوّة باقيـة لا محالـة. مهـما بـذل البـشر مـن مجهـود، لا يمكنهـم خلـق كائـن اجتماعـي، كلّ مـا بوسـعهم خلقـه هـو منظّمـة. ومـن خـلال عمليـة خلقهـم لكائـن اجتماعـي، فالمرجّـح أنّهـم لـن يخلقـوا سـوى نظـام اسـتبدادٍ شـمولي.

تقـدّم روايـة «عـالم جديـد شـجاع» صـورةً خياليـةً وإلى حـدّ مـا مبتذَلـةً عـن مجتمـعٍ دُفِـع فيـه تقريبًـا بمحاولـة إعـادة خلـق البـشر عـلى نمـط مسـتعمرات النّمـل الأبيـض إلى حـدود مـا هـو مُمْكـن. ومـا هـو واضـح فعـلًا هـو أنّنـا مَدفوعـون باتّجـاه «عـالم جديـد شـجاع». الأمـر الأقـلّ وضوحًـا هـو حقيقـة أنّ بإمكاننـا، لـو نحـن أردنـا ذلـك، رفـض التّعـاون والانسـياق مـع القـوى العميـاء التـي تدفـع بنـا نحـوه. في الوقـت الحـالي عـلى كلٍّ، لا تبـدو الرّغبـة في المقاومـة قويّـةً جـدًا، ولا أنّهـا واسـعة الانتشـار. كـما أوضـح السّـيد «ويليـام وايـت» في كتابـه الرّائـع «رجـل التّنظيـم»، فـإنّ نظـامَ أخـلاقٍ جديـد هـو الآن بصـدد الحلـول محـلّ نظامنـا الأخلاقـي التّقليـدي - وهـو النّظام الـذي يشـكّل فيـه الفـردُ العنصرَ الأسـاسَ والأهـمّ. الكلـمات المفتاحيـة في النّظـام الاجتماعـي للأخـلاق هـي «الملائمـة»، «التكيّـف»، «السّـلوك المُنمَّـط اجتماعيًـا»، «الانتـماء»، «اكتسـاب المهـارات الاجتماعيـة»، «العمـل الجماعـي ضمـن فريق»، «العيـش الجماعـي»، «الـولاء للجماعـة»، «ديناميكيـات المجموعـة»، «التّفكـير الجماعـي»، «الإبـداع الجماعـي». مبـدأُ فرضيّتِهـا الأسـاس هـو أنّ لـ «الـكلّ الاجتماعـي» قيمـةٌ وأهميّـة أكـبر مـن أجزائـه

الفرديـة، وأنّ مـن الـضّروري التّضحيـة بالاختلافـات البيولوجيـة الفطريـة لصالـح التّوحيـد الثّقـافي، وأنّ لحقـوق الجماعـة الأحقيـة والغلبـة عـلى مـا أسـماه القـرنُ الثّامـن عـشر «حقـوقَ الإنسـان». وفقًـا للأخلاقيـات الاجتماعيـة، فقـد كان يسـوع مخطئًـا تمامًـا في تأكيـده بـأنّ السّـبت خُلِـق مـن أجـل الإنسـان. بـل وعـلى العكـس مـن ذلـك، الإنسـان هـو مـن خُلِـق مـن أجـل يـوم السّـبت، وعليـه التّضحيـة بخصوصيّاتـه الموروثـة والتّظاهـر بأنّـه ذلـك النّـوع مـن الهجـين الطَّيِّـع والجيّـد الـذي ينظـر إليـه منظمّـو النّشـاط الجماعـي عـلى أنّـه المثـالُ الأعـلى الـذي يخـدم أهدافهـم. الرّجـل الأمثـل هـو ذاك الـذي يُظهِـرُ «التّوافـقَ الدّيناميـكي» (يـا لهـا مـن عبـارة رائعـة!) مـع ولاءٍ شـديد للمجموعـة، ورغبـة لا تـكلّ في إخضـاع نفسـه، وفي الانتـماء. يجـب إذن أن تكـون للرّجـل المثـالي زوجـةٌ مثاليـة، اجتماعيـة للغايـة، قـادرة عـلى التّكيـف بشـكلٍ لا نهـائي، وألّا تكـون فقـط مستسـلمةً لحقيقـةِ كـون ولاء زوجهـا الأوّل موجّـهٌ للشّركـة، بـل أن تكـون هـي نفسـها بدورهـا شـديدةَ الـولاء. «هـو للـرّب وحـده»، كـما قـال «ميلتـون» عـن آدم وحـواء، «هـي، للـرّب الـذي بداخلـه». ومـن ناحيـة، فـإنّ زوجـةَ رجـل المنَظمـة المثـالي أسـوأُ بكثـيرٍ مـن أمّنـا الأولى. فهـي عـلى الأقـلّ قـد سُـمِحَ لهـا أن تتحـرّر تمامًـا فيـما يخـصّ «المداعبـة الشّـبابية».

اليـوم، ووفقًـا لكاتـبٍ في مجلّـة «هارفـارد بيزنـس ريفيـو»، يجـب عـلى زوجـة الرّجـل الـذي يحـاول الارتقـاء إلى المسـتوى المثـالي الـذي تقترحـه الأخـلاق الاجتماعيـة ألّا تطالـب بالكثـير مـن وقـت زوجهـا أو اهتمامـه. بسـبب تركيـزه الـذي يكرّسـه لوظيفتـه وحدهـا، يجـب حتّـى عـلى نشـاطه الجنـسي أن يُحـال إلى مكانـةٍ ثانويـة. يقـوم

الرّاهـب بنـذر الالتـزام بالفقـر والطّاعـة والعِفّـة. ويُسـمَح لرجـل المنظّمـة أن يكـون ثريًـا، لكـن عليـه أن يَعِـد بالطّاعـة («يقبـل السّـلطة دون تذمّر، ويعظّم رؤسـائه» - Mussolini ha semper[3] ragione)، كـما يجـب أن يكـون مسـتعدًّا، مـن أجـل المجـد الأعظـم للمنظّمـة التـي توظّفـه، للتّخـلي حتـى عـن الحـبّ الزّوجـي.

تجـدر الإشـارة أنّ أعضـاءَ الحـزب في روايـة ١٩٨٤ أُجبِروا عـلى الالتزام بأخلاقيـات جنسـية أكـثرَ قسـاوةً مـن الأخلاقيـات البيوريتانيـة. بينما يُسـمَح في «عـالمٍ جديـد شـجاع» للجميـع بالانغـماس في غرائزهـم والانسـياق وراء نزواتهـم الجنسـية دونَ أيّ إحـراجٍ ولا عرقلـة. المجتمـع الـذي وُصِـف في حكايـة «أورويلـز» هـو مجتمـعٌ في حالـة تأهّـب للحـرب بشـكلٍ دائـم، وهـدف حكّامـه هـو أولاً ممارسـة السّـلطة مـن أجـل المتعـة الخاصّـة التـي تنتـج مـن تلـك الممارسـة بالطّبـع، وثانيًـا، إبقـاءُ رعاياهـم في حالـة التّوتـر المسـتمّر الـذي تقتضيـه حالـةُ الحـرب المسـتمرّة مـن طـرف المشـاركين فيهـا. مـن خـلال شـنّ حمـلات صليبيـة ضـدّ الجنـس، يمكـن للرّؤسـاء الحفـاظ عـلى التّوتـر المطلـوب عنـد أتباعهـم، وبإمكانهـم في الوقـت ذاتـه إشـباع شـهوتهم للسّـلطة بأفضـل الطّـرق إرضـاءً. المجتمـع المُقدَّم في «عـالمٍ جديـد شـجاع» هـو مجتمـعٌ عالمـي، قُضِيَ فيـه عـلى الحـرب، وهـدف الحـكّام الأوّل فيـه هـو منـع رعاياهـم مـن إثـارة المشـاكل مهـمَا كلّـف الأمـر. وهـذا مـا يحقّقونـه مـن خـلال (ومـا تلـك سـوى طريقـة مـن بـين عديـد الطّـرق الأخـرى) تشريـع وإباحـة درجـةٍ مـن الحرّيـة الجنسـية (التـي أصبحـت ممكنـة بفضـل إلغـاء الأسرة

---

٣ موسوليني محقّ دائمًا.

ومفهومها)، والتي تضمن عمليًا حماية سكّان العالم الجديد الشّجاع من أيّ نوعٍ من التّوتر العاطفي المُدمّر (أو الخلّاق). في رواية ١٩٨٤، تُشبَع شهوةُ السّلطة من خلال إلحاق الألم؛ بينما في رواية «عالم جديد شجاع»، فمن خلال فرض متعةٍ هي بالكاد أَقلُّ إهانةً منه.

من الواضح أنّ الأخلاق الاجتماعية الحالية ما هي سوى تبرير أتى بعد نتائج الإفراط في التّنظيم غير المرغوب فيها. وهي بطريقة مثيرة للشّفقة تمثّل محاولةً لتصنع من الضّرورة فضيلةً، ولتستخلص قيمةً إيجابية من مُعطيات غير سارّة. ليس «الكلُّ» الاجتماعي، والذي يُفترَض أنّ قيمته أكبر من قيمة الأجزاء المكوِّنة له، كائنًا بمعنى الكائن الذي قد يُنظَر إليه عندما يتعلّق الأمر بخلية النّحل أو مستعمرة النّمل الأبيض. هو مجرّد تنظيم، مجرّد جزءٍ من آليّةٍ اجتماعية. لا يمكن لأيّ قيمة التّواجدُ ما لم تكن بحياة الفرد ووعيه. لكن، ليس ذاك التّنظيمُ لا واعيًا ولا حيًّا؛ وقيمته هي قيمة وسيلةٍ ومشتقّ. هو ليس جيّدا في حدِّ ذاته، بل جيّدٌ فقط في حدود أنّه يعزّز ما هو خَيِّرٌ للأفراد الذين هم أجزاءٌ من «الكلّ» الجماعي. إعطاءُ التّنظيمات الأسبقية على الأفراد يعني إخضاعَ الغايات للوسائل. وقد أثبتَ كلٌّ من هتلر وستالين بوضوح ما يحدث عند إخضاع الغايات للوسائل. في ظلّ حكمهما البشع، أُخضِعت الغايات الشّخصية للوسائل التّنظيمية بتطبيق هجينٍ من العنف والبروباجاندا، التّرهيب الممنهج والتّلاعب المنهجي بالعقول. من المحتمل أن يكون في أكثر ديكتاتوريات الغد نجاعةً وفعّالية قدرٌ أقلُّ بكثير من العنف مقارنة بما كان عليه الأمر تحت

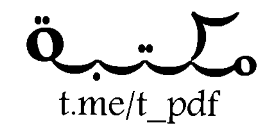
حكم هتلر وستالين. سيخضَع رعايا الدّيكتاتور المستقبلي لرقابةٍ خالية من الألم، تمارسها مجموعة من المهندسين الاجتماعيين المؤهّلين والمدرّبين تدريباً عالياً. كَتَبَ أحدُ أكثر المدافعين عن هذا العلم الجديد حماسةً قائلا: «يشبه التّحدي الذي تواجهه الهندسة الاجتماعية في عصرنا التّحديات التي واجهتها الهندسة التّقنية قبلَ خمسين عامًا مضت» - وأفترض أنّ القرن الحادي والعشرين سيكون عصرَ المُتحكّمين العالميين، ونظامَ الطّبقات العلمية، وعصرَ «عالم جديد شجاع». على السّؤال - من سيحرس حرّاسنا، من سيهندس المهندسين؟ - يكون الجواب إنكارًا أعمى مفاده أنّهم في غنًى عن أيّ رقابة. يبدو أنّ هنالك بين دكاترة علم الاجتماع اعتقادٌ مؤثّرٌ سائد بأنّه يستحيل أن تُفسِد السّلطة دكاترة علم الاجتماع. مثل «السير جلاهاد»، تعادل قوّتهم قوّة عشرة نفر لأنّ قلوبهم نقية - وقلوبهم نقية لأنّهم علماء، ولأنّهم قضوا ستّة آلاف ساعة في الدّراسات الاجتماعية.

للأسف، ليس التّعليم الأعلى بالضّرورة ضمانًا لفضيلةٍ عليا، ولا لحكمةٍ سياسية عليا. يجب أن تضاف لهذه الهواجس النّاشئة على أسس أخلاقية ونفسية هواجسٌ ذات طابع علميّ بحت. فهل بإمكاننا تقبّل النّظريات التي يبني المهندسون الاجتماعيون عليها ممارستهم، والتي يستعملون لتبرير تلاعبهم بالبشر؟ على سبيل المثال، يخبرنا البروفيسور «إلتون مايو» بشكل قاطع أنّ «رغبة الإنسان في الارتباط بشكل مستمر في العمل مع زملائه هي خاصيّة بشرية قوية، إن لم تكن الأقوى (من بين خصائص البشر). سأقول أنّ من الواضح أنّ هذا التّأكيد غير

صحيح. يملك بعض الأفراد نوعَ الرّغبة التي وصفها «مايو»، بينما لا يملكها البعض الآخر. الأمر مسألة مزاجٍ ووراثة بنيوية. أيّ تنظيم اجتماعي يقوم على افتراض أنّ «الإنسان» (أيًّا كان هذا «الإنسان») يرغب في أن يكون مرتبطًا بشكل مستمر مع زملائه سيكون، بالنّسبة لعديد الأفراد، رجالًا ونساءً، بمثابة سرير «بروكرست». لا يمكنهم التّأقلم معه إلّا من خلال البَتر أو الشّد المُعذِّب.

مجدّدا، كم مضلِّلةٌ عاطفيًا هي الدّفاعات الشِّعرية للعصور الوسطى التي يزيّن بها عديد المنظّرين المعاصرين للعلاقات الاجتماعية أعمالَهم! «حَمَتْ العضوية في نقابةٍ (جمعية حصرية)، أو ملكية أميرية، أو أيّ قرية كانت رَجُلَ العصور الوسطى طوالَ حياته، ومنحته السّلام والصّفاء». قد نتساءل، لكن مِمَّ حَمَتْهُ يا ترى؟ بالطّبع هي لم تحمه من التّنمر أو من معاملة رؤسائه السّيئة التي مارسوها دون أدنى أثر للنّدم. وإلى جانب كلّ ذلك «السّلام والصّفاء»، تواجد طوال العصور الوسطى قدرٌ هائلٌ من الإحباط المزمن والتّعاسة الشّديدة الحادّة، إلى جانب استياءٍ حماسي وكرهٍ للنّظام الهرمي الصّارم الذي لم يسمح بأيّ حركة رأسية ضمن السُّلَم الاجتماعي، كما لم يُسمَح لمن كان محكومًا عليهم بالارتباط بالأرض إلّا بحركة جدّ محدودة أفقيا في الحيّز المكاني الضّيق. تدفعنا القوى غير الشّخصية المتمثّلة في الاكتظاظ السّكاني والتّنظيم المفرط، كما يدفعنا المهندسون الاجتماعيون الذين يحاولون توجيهَ تلك القوى ليزجّوا بنا في نظامِ عصورٍ وسطى جديد. سيُجعَل من هذا الإحياء شيئًا مقبولاً أكثرَ من النّظام الأصلي بوسائل الرّاحة المستوحاة من

«عـالم جديـد شـجاع»، مثـل تكييـف الرُّضَـع، والتّعليـم أثنـاء النّـوم، والنّشـوة المُفتعَلـة كيماويـا، لكنّـه سـيظلّ بالنّسـبة لأغلبيـة النّسـاء والرّجـال نوعًـا مـن العبوديـة.



الفصل الرّابع

البروباجندا في مجتمع ديمقراطي

فيـما كتـب «جيفرسـون»: «اعتقـدَت المذاهـبُ الأوروبيـة أنّـه ليـس بالإمـكان تقييـد البـشر في عديـد الحـالات في حـدود النّظـام والعدالـة إلّا مـن خـلال قـوًى ماديـة ومعنويـة تمارسـها عليهـم سـلطاتٌ مسـتقلّة عـن إرادتهـم... نحـن (مؤسّسـو الدّيمقراطيـة الأمريكيـة الجديـدة) نؤمـن بـأنّ الإنسـانَ حيـوانٌ عقـلاني، وَهَبتْـه الطّبيعـةُ حقوقًا، وكـذا حسًّـا فطريًـا بالعدالـة، وبـأنّ بالإمـكان منعه عـن الخطـأ وحمايتـه في إطـار الحـقّ مـن خـلال قـوًى معتدلـة، يُؤتَمـن عليهـا أشـخاصٌ مـن اختيـاره، ومرتبطـون بواجباتهـم اعتـمادًا عـلى إرادتـه». بالنّسـبة لسـمع آذانٍ تنتمـي إلى مـا بعـد العـصر الفرويـدي، يبـدو هـذا النّـوع مـن الخطـاب غريبًـا وسـاذجًا بشـكلٍ مؤثّـر؛ فالبـشر يفتقـدون لحـسّ العدالـة الفطـري وهـم أقـلُّ عقلانيـةً بكثـير مـمّا افترضـه متفائلـو القـرن الثّامـن عـشر. ومـن الجانـب الآخـر، هـم ليسـوا بمثـل ذلـك العمـى الأخلاقـي، ولا غـير منطقيّـين بشـكلٍ ميـؤوس منـه كـما أراد منّـا متشـائمو القـرن العشريـن تصديقـه. وعـلى الرّغـم مـن الهـو واللّاوعـي، عـلى الرّغـم مـن أمـراض العُصـاب المسـتفحلة وانتشـار معـدّل الـذكاء المنخفـض، فالأرجـح أنّ معظـم الرّجـال والنّسـاء يبقـون رغـم كلّ ذلـك جديريـن بمـا يكفـي، ومحسّـين بمـا يكفـي للوثـوق بهـم في التّـصرف في مصائرهـم.

المؤسّسات الدّيمقراطية هي أجهزةٌ وُجِدت للتّوفيق بين النّظام الاجتماعي، الحرية الفردية وروح المبادرة، ولجعل السّلطة المباشرة لحكّام الدولة خاضعةً للسّلطة النّهائية للمحكومين. حقيقة أنّ هذه الأجهزة، في أوروبا الغربية وأمريكا قد نجحت نوعًا ما، لو أخذنا جميعَ الأشياء بعين الاعتبار، هي دليلٌ كافٍ على أنّ متفائلي القرن الثّامن عشر لم يكونوا مخطئين تمامًا. لو مُنِحوا الفرصةَ العادلة، بإمكان البشر أن يحكموا أنفسهم، وأن يحكموا أنفسهم بشكل أفضل، ولو كان ذلك بكفاءة تقنيّة أدنى من تلك التي ستحكمهم بها «سلطات مستقلّة عن إرادتهم». لو مُنِحوا الفرصة العادلة، أقول وأكرّر؛ ذلك لأنّ الفرصة العادلة شرطٌ أساسيّ يستحيل الاستغناء عنه. لا يمكن القول عن أيّ شعبٍ انتقل فجأةً من حالة التّبعية تحت ظلّ حكم مستبد إلى حالة الاستقلال السّياسي غير المألوفة بالنّسبة له، مهما كان، أنّ لديه أدنى فرصة لجعل مؤسّساتٍ ديمقراطية تنجح في وظيفتها. مرّةً أخرى، لا وجودَ لشعب في وضع اقتصادي سيّء وغير مستقر يملك فرصةً عادلة ليكون قادرًا على حكم نفسه بشكل ديمقراطي. تزدهر الليبرالية في جوّ من البحبوحة والرّخاء، وتتقهقر حينما يجعل تراجعُ الرّخاء التّدخّلَ بشكلٍ متكرّر وجذري في شؤون رعاياها ضروريًا على الحكومة. الاكتظاظ السّكاني والتنظيم المفرط، كما سبق وأن أشرت بالفعل، شرطان يحرمان المجتمعَ من فرصة عادلة في جعل المؤسّسات الديمقراطية تعمل بشكلٍ فعّال. نحن نرى إذن أن هناك ظروفًا تاريخية واقتصادية وديموغرافية وتكنولوجية معيّنة تجعل من الصّعب جدًّا على حيوانات «جيفرسون» العقلانية، والتي وُهِبت بطريقة طبيعية حقوقًا يستحيل التّنازل عنها، كما مُنِحت حسًّا فطريًا بالعدالة، ممارسةُ عقلنتها أو المطالبة بحقوقها

والتّصرف بشكلٍ عادل داخلَ مجتمع منظّمٍ ديمقراطيا. لقد كنّا في الغرب جدّ محظوظين كوننا مُنِحنا فرصتَنا العادلة لتحقيق تجربة الحكم الذّاتي العظيمة. لسوء الحظ، ونظرًا لتغيّرات ظروفنا الأخيرة، يبدو الآن أنّ هذه الفرصة العادلة الثّمينة للغاية قد سُلِبت منّا تدريجيًا. وبالطّبع، ليس هذا كلّ شيء. فتلك القوى العمياء غير الشّخصية ليست الأعداءَ الوحيدة للحرية الفردية والمؤسّسات الدّيمقراطية؛ هنالك أيضًا قوى أُخرى ذات طابعٍ أقلَّ تجريدًا، قوًى يمكن استخدامها عمدًا من قِبَل أفرادٍ يسعون وراء السّلطة، هدفهم هو وضعُ سيطرةٍ جزئية أو كاملة على أمثالهم. قبلَ خمسين عامًا، عندما كنت طفلًا، بدا واضحًا تمامًا أن عهد الأيّام السّيئة الخوالي قد ولّى، وأنّ التّعذيب والتّذبيح والعبودية وكذا اضطهاد المرتدّين قد أصبحت ممارسات تنتمي إلى الماضي. وأصبحت أشياءٌ كهذه بالنّسبة لأشخاص متحضّرين يعتمرون القبّعات، ويسافرون بالقطار، ويستحمّون كلّ صباح ببساطةٍ فظائعُ مستحيلة الورود وغير معقولة. فقد كنّا رغم كلّ شيء نعيش في القرن العشرين. وبعد مضيّ بضع سنوات، أصبح هؤلاء الأشخاص الذين يستحمّون يوميًا ويذهبون إلى الكنيسة مرتدين قبّعات جميلة يرتكبون فظائعَ على مقياسٍ لم يكن يحلم به الأفارقة والآسيويون المُتَخَلِّفون. على ضوء الأحداث التاريخية الأخيرة، من الغباء افتراضُ أنّه يستحيل على هذا النّوع من الأشياء أن يحدث مجدّدًا. فذلك شيءٌ ممكن الحدوث، بل وبلا شك، سيحدث مجدّدا. لكن في المستقبل القريب، هناك أسباب منطقية تجعلنا نعتقد بأنّ الأساليب العقابية الموجودة في رواية ١٩٨٤ سوف تترك مكانها للتّعزيزات والتّلاعب الموجود في رواية «عالم جديد شجاع».

يوجد من البروباجاندا نوعان- البروباجاندا العقلانية، تلك التي تكون في توافقٍ مع المصلحة الذّاتية المستنيرة لمن يصنعونها وأولئك الذين تتوجّه إليهم؛ والبروباجاندا غير العقلانية، أي التي لا تتوافق مع المصلحة الذّاتية المستنيرة لأيٍّ كان، بل تُمليها العاطفة، وهي ما تتوجّه إليه في خطابها. عندما يتعلّق الأمرُ بتصرّفات على الصّعيد الفردي، توجد دوافعٌ أسمى من المصلحة الذّاتية المستنيرة، لكن عندما يتوجّب اتّخاذ إجراء جماعي في مجالات السّياسة والاقتصاد، فلربّما ستصبح حينها المصلحة الذّاتية المستنيرة أكثرَ الدّوافع فاعليةً. لو أنّ السّياسيين وناخبيهم تصرّفوا دائمًا بهدف تعزيز مصالحهم، أو مصالح بلدهم على المدى الطّويل، لكان هذا العالم الآن جنّةً على الأرض. حقيقة الأمر أنّهم غالبًا ما يتصرفون ضدّ مصالحهم الخاصّة، فقط لإشباع نزواتهم الشّائنة؛ والعالمُ إذن نتيجةً لذلك هو مكانٌ للبؤس. البروباجاندا التي تدعم تصرّفًا يتوافق جيّدًا مع المصلحة الذّاتية المستنيرة تُناشد العقلَ عن طريق حجج منطقية قائمة على أفضل الأدلّة المتاحة، والتي تكون قد عُرِضت بالكامل وبشكلٍ صادق. بينما البروباجاندا التي تؤيّد تصرّفًا أدنى من المصلحة الذّاتية، فتقدّم أدلّةً كاذبة أو مشوَّهة أو منقوصة، تتجنّب الحجّة المنطقية وتسعى للتّأثير على ضحاياها بمجرّد تكرار الشّعارات، وعن طريق التّنديد الغاضب بكباش الفداء أجنبيةً كانت أو محلية، والرّبط الخبيث البارع لأكثر المشاعر دناءةً بالمُثُل العليا، بحيثُ تُرتَكب الفظائع باسم الرّب، ويتمّ التّعامل مع أكثر أنواع السّياسة الواقعية تبجّحًا على أنّها مسألةُ مبدأٍ دينيّ وواجب وطني.

على حدّ تعبير «جون ديوي»، فـ «تجديد الإيمان بالطّبيعة البشرية، في إمكانيتها بشكلٍ عام، وبالخصوص في قدرتها على الاستجابة للعقل والحقيقة، هو متراسٌ منيع قائمٌ ضدَّ الشّمولية، أكثرَ من إظهارٍ للنّجاح المادي، أو العبادة المتديّنة لشكليّةٍ قانونية وسياسية خاصّة». توجد بداخل كلّ فرد منّا القدرة على الاستجابة للعقل والحقيقة؛ كما وللأسف يوجد الميولُ إلى الاستجابة للّاعقلانية والباطل - لا سيما في الحالات التي يثير فيها الباطلُ بعضَ المشاعر الممتعة، أو عندما تَعزِف الدّعوةُ اللّاعقلانية على أوتارٍ في كياننا البدائي الأدنى إنسانيةً. تعلّم البشر في بعض المجالات أن يستجيبوا لنداء العقل والحقيقة بشكلٍ يكاد يكون ثابتًا. فكُتّابُ المقالات العلمية لا يناشدون عواطف زملائهم العلماء ورجال التّكنولوجيا؛ بل يقدّمون فيما توصّلوا إليه بمعرفتهم ما هو الحقيقة في جوانب معيّنة من الواقع، يستخدمون المنطق لشرح الحقائق التي لاحظوها، ويدعمون وجهة نظرهم بحجج تناشد المنطق عند الآخرين. يبدو كلّ هذا في غاية السّهولة في مجالات العلوم الفيزيائية والتكنولوجيا؛ لكنّه أصعبُ بكثيرٍ عندما يتعلّق الأمر بمجالات السّياسة والدّين والأخلاق. فهنا، غالبًا ما تتملّص منّا الحقائق ذات الصّلة. أما عن معنى الحقائق، فهذا بالطّبع يعتمد على نظام تفكير معيّن، والذي ستَختار أنت أن تفسّرها ضِمْنه. لكن ليست هذه الصّعوبات الوحيدة التي تواجه الباحثَ العقلاني عن الحقيقة؛ ففي الحياة العامّة كما الخاصّة، يحدث غالبًا أنّه وببساطة لا يُتاح ما يسمح من الوقت لجمع الحقائق ذات الصّلة، أو لتقييم أهميّتها. نحن مجبرون على العمل اعتمادًا على أدلّة غير كافية، وتحت ضوء أقلُّ ثباتًا بقدرٍ مُعتبر من

ضوء المنطق. ولو تحلّينا بأفضل إرادةٍ على الإطلاق، سيتعذّر علينا أن نكون دائمًا صادقين تمامًا، أو عقلانيين باستمرار. كلّ ما بوسعنا فعله هو أن نكون صادقين وعقلانيين بالقدر الذي تسمح لنا الظّروف به، وأن نستجيب بأفضل طريقة ممكنة للحقيقة المحدودة والتّفكير والاستدلالات غير المثالية التي يمنحها لنا الآخرون.

«إذا كانت الأمّة تتوقّع أن تكون جاهلة وحرّة»، قال جيفرسون، «فهي تتوقّع ما لم يكن أبدًا، وما أبدًا لن يكون... لا يمكن للنّاس أن يحسّوا بالأمان دون إعلام. حيث تكون الصّحافةُ حرّةً، وكلّ فرد قادر على القراءة، فالأمور في أمان وعلى ما يرام». وعلى الضّفة الأخرى من المحيط الأطلنطي، كان مؤمنٌ شغوفٌ آخرُ بالعقل يفكّر في الفترة نفسها تقريبًا بعبارات مشابهة بالضّبط. هذا ما كتبه «جون ستيوارت ميل» عن والده، الفيلسوف الذي ينتمي إلى التّيار «النّفعي»، «جيمس ميل»: «لو كانت ثقتُه في تأثير المنطق على العقل البشري كاملةً، في كلّ مرّة يُسمَح له فيها بالوصول إليه، وأحسّ بأنّه بالإمكان الانتصار في كلّ المجالات لو أنَّه كان بإمكان السّكان جميعهم القراءة، وقُدّمت لهم كلّ أنواع الآراء شفاهةً أو كتابيا، ولو كان بإمكانهم ترشيح هيئة تشريعية لتفعيل الآراء التي اعتمدوها عن طريق الاقتراع». فكلُّ شيءٍ في مأمن، وسيُكسَب الكثير! ومرّة أخرى، نسمع نبرةَ تفاؤلِ القرن الثّامن عشر. صحيح أنّ «جيفرسون» كان واقعياً و أيضًا متفائلاً؛ لكنّه كان يعلم عن تجربة مريرة أنّه بالإمكان إساءةُ استخدام حرّية الصّحافة بشكل مخزٍ. قال مصرّحًا: «لم يعد هنالك شيء كُتِب في الجرائد بالإمكان تصديقه

الآن»، ومع ذلك، أصرّ (ولا يسعنا إلّا موافقته الرّأي) قائلًا : «في حدود الحقيقة، الصّحافةُ مؤسّسةٌ نبيلة، وهي صديقة العلم والحرّية المدنية على حدّ سواء». باختصار، ليس الإعلام الجماهيري لا جيّدًا ولا سيّئًا؛ هو مجرّد قوّة، وحاله كحال أيّ قوّة أخرى يمكن استعماله في الخير والشّر على حدّ سواء. إذا ما استُخدمت بطريقة معيّنة، فلا غنًى عن الصّحافة والرّاديو والسينما بهدف الإبقاء على الدّيمقراطية. أمّا إذا ما استخدمت بطريقة أخرى، فستصبح من بين أقوى الأسلحة ضمن ترسانة الديكتاتور. في مجال الإعلام الجماهيري، كما هو الحال تقريبًا في كلّ مجالٍ من مجالات الأعمال الأخرى، أضرّ التّقدم التكنولوجي بالإنسان البسيط وساعدَ الإنسان الأقوى. منذ أقلّ من خمسين سنة فقط، أمكنَ لأيّ دولة ديمقراطية الافتخارُ بأكبر عددٍ من المجلّات الصّغيرة والصّحف المحلية. إذ عَبّر آلافُ المحرّرين عبر أرجاء البلاد عن آلاف الآراء المستقلّة؛ في كلّ مكان، أمكن لأيٍّ كان طبع ونشر ما يشاء. الآن، لا تزال الصّحافة حرّةً بحكم القانون؛ لكنّ معظم الجرائد الصّغيرة اختفت. فتكاليف الورق، وماكنات الطّباعة العصرية وتكاليف الانتماء إلى وكالات الأنباء مرتفعة جدًّا بالنّسبة لما يمكن للإنسان البسيط تحمّله من أعباء. في الشّرق الشّمولي، توجد رقابةٌ سياسية، و تسيطر الدّولة على وسائل الإعلام. بينما في الغرب الدّيمقراطي توجد رقابةٌ اقتصادية، ويسيطر أعضاءُ «النّخبة القويّة» على وسائل الإعلام. صحيحٌ أنّ الرّقابة المفروضة من خلال ارتفاع التّكاليف وتركيز قوّة الإعلام في أيدي عددٍ قليل من المنظّمات يعتبر شيئًا أقلُّ بغضًا من الملكية التّابعة للدّولة والبروباجاندا الحكومية؛ لكنّه يبقى شيئًا يستفزّ بالتّأكيد أيّ ديمقراطيٍّ جيفرسونيّ، ولا يمكن

لهـذا الأخـير أبـدًا الموافقـة عليـه.

أمّـا فيـما يتعلّـق بالبروباجانـدا، فالمدافعـون الأوائـل عـن محـو الأميّـة الشّـاملة وعـن الصّحافـة الحـرّة لم يتصوّروها سـوى في شـكلٍ احتمالـين اثنـين: قـد تكـون البروباجانـدا إمّـا صحيحـةً وإمّـا خاطئـة. لم يتوقّعـوا مـا الـذي حـدثَ بالفعـل، وخاصّـة في ديمقراطياتنـا الرّأسـمالية الغربيـة - وهـو تطـوّر صناعـة إعـلامٍ جماهـيري واسـع، لا يهتـمّ بالصّـواب أو الخطـأ بالأسـاس، بـل بـكلّ مـا هـو غـير واقعـي، وإلى حـدّ معـيّن، بـكلّ مـا هـو غـير ذي صلـة. باختصـار، لقـد فشـلوا في الأخـذ بعـين الاعتبـار شـهيّة الإنسـان التـي لا حـدود لهـا تقريبًـا للتّسـلية والإلهـاءات.

في وقـتٍ مـضى، لم تسـنح لمعظـم النّـاس فرصـة إشـباع هـذه الشّـهية بالكامـل. فقـد كانـوا يتوقـون بشـدّة للتّسـلية التـي لم تكـن متوفّرة. كان هنالـك عيـد الميـلاد، لكنّـه مناسـبة تحـدث مـرّةً واحـدة في السّـنة، كـما كانـت الحفـلات مناسـبات «مهيبـةً ونـادرة»، تواجـد فعليًـا عـدد قليـلٌ مـن القـراء، والـشّيء القليـل جـدًّا مـمّا يُقْـرَأ، فأقـرب طريـق لقاعـة السّـينما تمثّـل حينهـا في أبرشـية الحـيّ التـي تُقـدَّم فيهـا عـروضٌ، رغـم كثرتهـا، تظـلّ رتيبـةً إلى حـدّ مـا. لإيجـاد ظـروف مشـابهة بالإمـكان مقارنتهـا ولـو مـن بعيـد بالظّـروف السّـائدة الآن، علينـا العـودة إلى عـصر رومـا الإمبراطوريـة، حيـثُ كان يتـمّ الإبقـاء عـلى الشّـعب في مـزاج جيّـد مـن خـلال جرعـات متكـرّرة مجّانيـة مـن أنـواع التّرفيـه المتعـدّدة - والتـي تتنـوّع مـن الأعـمال الشّـعرية الدّراميـة لمصارعـات الجلّاديـن، ومـن قـراءاتٍ في شـعر «فيرجيـل» إلى مصارعـات الملاكمـة العتيقـة الإغريقيـة، ومـن الحفـلات إلى المحاكـمات العسـكرية إلى مشـاهد الإعـدام العلنيـة.

لكن، وحتّى في روما لم يكن هنالك تسلية مستمرّة لا تنقطع كما هو اليوم حال التّسلية التي توفّرها الجرائد والمجلّات والرّاديو والتلفزيون والسينما. في «عالم جديد شجاع»، تُستخدَم وسائلُ إلهاءٍ مستمرّة ذات طبيعة أشدّ إبهارًا (المشاعر، والعربدة، والجرو الطنان بالطّرد المركزي) بشكل مُتعمَّد كأدوات للحُكْم والسّلطة، بهدف منع النّاس من أن يولوا اهتمامًا كبيرًا بحقائق الوضع الاجتماعي والسّياسي السّائد. في ذلك الكون الموازي، يختلف عالمُ الدّين الآخر عن عالم التّرفيه الآخر؛ لكنّهما يتشابهان بكونهما بكلّ تأكيد ليسا من «هذا العالم». كلاهما عبارةٌ عن تشتيت للانتباه، وإذا ما عاشَ فيهما المرء بشكل مستمرّ لفترة طويلة، بإمكان الاثنين أن يتحوّلا - حسبَ مقولة ماركس- إلى «أفيون الشّعب»، وبالتالي إلى تهديدٍ للحريّة. اليقظون هم وحدهم من بإمكانهم الحفاظ على حريّاتهم، ووحدهم الفطنون سريعو البداهة وأصحاب الذّكاء الحاد من بإمكانهم أن يأملوا في حكم أنفسهم بفعالية من خلال تطبيق الإجراءات الدّيمقراطية. مجتمعٌ لا يقضي معظمُ أعضائه جزءًا كبيرًا من وقتهم في الواقع الآنيّ الرّاهن أو في مستقبلٍ يمكن توقّعه، بل في مكانٍ آخر، في عوالمَ أُخرى لا تمّت للحقيقة بصلة، في الرّياضة والعروض والمسلسلات التلفزيونية، وفي عوالم الأساطير والخيال الميتافيزيقي، هو مجتمعٌ سيجد صعوبةً في مقاومة تجاوزات أولئك الذين سيتلاعبون به ويسيطرون عليه.

يعتمد ديكتاتوريو اليوم في بروباجانداهم أساسًا على التّكرار والقمع والعقلنة - تكرارُ شعاراتٍ يودّون لو قُبِلت على أنّها حقيقة، وقمعُ وإخفاء الحقائق التي يودّون أن تُجهَل، إثارة

وتبريـر العواطـف التـي قـد تُسـتخدَم لخدمـة مصالـح الحـزب أو الدّولـة. مـع فهـمٍ أفضـل لفـنّ وعلـم التّلاعـب، سـيتعلّم ديكتاتوريو المسـتقبل بشـكل لا يـترك مجـالًا للشـكّ كيفيـة دمـج هـذه التّقنيات مـع وسـائل الإلهـاء المسـتمر، والتـي تهـدّد بـأن تُغـرِقَ الآنَ في الغرب في بحـرِ اللّامعنـى الدعايـةَ العقلانيـة التـي تعـدّ ضرورةً للحفـاظ عـلى الحريّـة الفرديـة، والإبقـاء عـلى المؤسّسـات الدّيمقراطيـة.

الفصل الخامس

البروباجاندا في ظلّ الدكتاتورية

أثناءَ محاكمته بعد انتهاء الحرب العالمية الثّانية، ألقى وزيرُ هتلر للتّسلح، «ألبرت سبير»، خطابًا طويلًا وصفَ فيه بحدّة مدهشة الاستبدادَ النّازي، وحلّل خلاله أساليبَه التي اتبّعها. قال : «اختلفت دكتاتورية هتلر في نقطة أساسية واحدة عن كلّ سابقاتها في التّاريخ؛ إذ كانت أوّلَ دكتاتورية في عصر التّقدّم التّقني الحديث، وهي ديكتاتورية استغلّت بالكامل جميعَ الوسائل التّقنية المتاحة للسّيطرة على بلدها. من خلال استعمال الأجهزة التّقنية كالرّاديو ومكبّر الصّوت، حُرِمَ ثمانون مليون شخص من حرية التّفكير. وأمكن بذلك إخضاعهم لإرادة رجلٍ واحد... في السّابق احتاج الدّيكتاتوريون إلى مساعدين، أشخاص مؤهَّلين تأهيلاً عالياً (الموظّفون) حتّى في أدنى المستويات - رجالٌ كان بإمكانهم التّفكير والتّصرف بشكل مستقلّ تمامًا. أمّا النّظام الشّمولي في فترة التّطور التّقني الحديث فقد أصبح بإمكانه الاستغناءُ عن ذلك النّوع من الرّجال، بفضل وسائل الاتّصال الحديثة، أصبح من الممكن مَيْكَنَةُ مناصب القيادة الدّنيا. ونتيجةً لهذا، وُجد نوعٌ جديدٌ من متلقّي الأوامر الذين لا ينتقدونها أبدًا ولا يضعونها أبدًا محلَّ تساؤل».

في «العالم الجديد الشّجاع» من خرافتي التّنبؤية، بلغت التّكنولوجيا تقدّما تجاوز بكثير التّقدم الذي بلغته في عهد

هتلر؛ وكنتيجة لذلك كان متلقّو الأوامر أقلّ انتقادًا بكثيرٍ من نظرائهم النّازيين، وأكثر طاعةً بأشواطٍ للنّخبة التي تعطي الأوامر. إضافةً إلى ذلك، تمّ تقييسهم وتوحيدهم وراثيًا، وكذا تكييفهم بعد الولادة لأداء وظائفهم المتمثّلة في التّبعية، وبالتّالي أمكن التّأكّد من تصرّفهم بشكلٍ يعادل ما هو مُتوقَّع من تصرّف الآلات. كما سنرى في فصل لاحقٍ من فصول هذا الكتاب، تكييف «القيادة الدّنيا» هذَا هو الآن بالفعل في صدد الحدوث تحت هيمنة الدّكتاتوريات الشّيوعية. إذ لا يعتمد الصّينيون والرّوس على الآثار غير المباشرة للتّقدم التكنولوجي؛ بل يعملون مباشرة على الكيانات النّفسو-جسدية لقادتهم في المراتب الدّنيا، مُخضِعين بذلك العقولَ كما الأجساد لنظام تكييف لا يعرف الرّحمة، والذي يعتبر من جميع المناظير فعّالًا للغاية. قال «سبير»: «كم من البشر أرّقهم كابوس أنّه قد يهيمَن على الدّول في يوم من الأيّام بالوسائل التّقنية. كاد هذا الكابوس أن يصبح حقيقةً تحت نظام هتلر الشّمولي». كاد، لكنّه لم يفعل. فلم يتسنّى للنازيين ما يسمح من الوقت – أو ربّما لم يكن لديهم ما يلزم من ذكاء ومعرفة - لغسل أدمغة قادتهم الأدنى مراتبًا وتكييفهم. وقد يكون هذا واحدًا من بين أسباب فشلهم.

منذ عهد هتلر، تطوّرت ترسانة الوسائل التّقنية الموضوعة تحت تصرّف الدّيكتاتور المستقبلي بشكلٍ كبير. إضافةً إلى الراديو، مكبّر الصّوت، كاميرا التّصوير، والصّحافة الدّوارة، بإمكان صانع البروباجاندا المعاصر استخدام التلفزيون لبثّ صورة موكّله وكذلك صوته، كما بإمكانه تسجيل كلّ من الصّورة والصّوت

علـى شرائـط مغناطيسـية. بفضـل التّقـدم التكنولوجـي، بإمـكان «الأخ الأكـبر» أن يتواجـد في كلّ مـكان تقريبًـا تمامًـا مثـل الـرّب. زد عـلى ذلـك، لم يتـمّ تعزيـز قـدرات وصلاحيـات الدّيكتاتـور المُحتمَـل عـلى الصّعيـد التّقنـي فحسـب؛ فمنـذ عهـد هتلـر، تـمّ إحـراز تقـدّمٍ معتـبر في مجـالات علـم النّفـس التطبيقـي وعلـم الأعصـاب التـي تعـدّ الميـدان الـذي يبـدع فيـه بشـكل خـاص صانـع البروباجانـدا، المُلقِّـن وغاسـل الأدمغـة. في السّـابق، كان المتخصّصـون في فـنّ تغيـير تفكـير النّـاس تجريبيّـين في مقاربتهـم. عـن طريـق منهجيـة التّجربـة والخطـأ، وضعـوا عـددًا مـن التّقنيـات والإجـراءات التـي اسـتخدموها بفعاليـة كبـيرة، رغـم جهلهـم بسـبب نجاعتهـا عـلى وجـه التّحديـد. في يومنـا هـذا، فـنّ التّحكـم في العقـول في طـور التّحـول إلى علـم قائـمٍ بحـدّ ذاتـه؛ ويعـرف ممارسـوه جيّـدًا مـا الـذي يقومـون بـه، ولأيّ هـدف يفعلـون ذلـك. يسترشـدون في عملهـم هـذا بنظريـات وفرضيـات يرسّـخونها عـلى أسـاسٍ متـين مـن الأدلّـة التجريبيـة. وبفضـل المنظـورات الجديـدة والتّقنيـات الجديـدة التـي أتاحتهـا هـذه المنظـورات بالـذّات، أصبـح بإمـكان «الكابـوس الـذي كاد أن يتحقّـق تحـت نظـام هتلـر الشّـمولي» أن يصبـح في القريـب العاجـل قابـلاً للتّحقيـق.

ولكـن قبـل أن نناقـش هـذه المنظـورات، الأفـكار والتّقنيـات الحديثـة، دعونـا نلقـي نظـرةً عـلى الكابـوس الـذي كادَ أن يتحقّـق في ألمانيـا النّازيـة. أيُّ الأسـاليب اسـتخدم هتلـر و«جوبلـز» حتّـى تمكّنـا مـن «حرمـان ثمانـين مليـون شـخص مـن حريّـة التّفكـير وإخضاعهـم لإرادة رجـل وحيـد؟» ومـا كانـت نظريـة الطّبيعـة البشريـة التـي أُسِّسـت عليهـا تلـك الأسـاليب النّاجحـة بشـكل

مرعب؟ يمكن الإجابة على هذه الأسئلة في معظمها من خلال كلمات هتلر نفسه. وكم كانت واضحة وذكيّة، وأيضًا خادعة كلماتُه! عندما يكتب عن أفكارٍ تجريدية واسعة المجال كالعرق والتّاريخ والعناية الإلهية، تستحيل قراءته تمامًا؛ لكن عندما يقرأ عن الحشود الجرمانية والطّرق التي انتهجها للسّيطرة عليها وقيادتها، فأسلوبه يتغيّر بالكامل. يترك اللّامعنى مكانه للمعنى، كما يترك الهراء مكانه لتعقّل واستبصارٍ حادٍّ وساخر. في نظرياته الفلسفية العسيرة، كان هتلر إمّا يحلم أحلامَ يقظة بطريقة ضبابية، إمّا يكرّر أفكار الآخرين التّقريبية. بينما في تعليقاته فيما يتعلّق بالحشود والبروباجاندا، فهو يتكلّم عن تجربة مباشرة شخصية. وعلى حسب قول كاتب سيرته الأمهر، السّيد «آلان بولوك»، «فقد كان هتلر أعظم ديماغوجي عرفه التّاريخ». يمكن القول أنّ ما يضيفون عبارة «لم يكن سوى ديماغوجي فحسب» قد أخطأوا في تقدير طبيعة القوّة السّياسة في عصر السّياسة الجماهيرية. كما قال هو شخصيا: «أن يكون المرء قائدًا يعني أن يكون قادرًا على تحريك الحشود». كان هدف هتلر أوّلاً تحريك الحشود، ثمّ، بعد أن يكون قد حرمها من ولائها السّابق ومفاهيمها السّابقة للأخلاق، يفرض عليها (بموافقةٍ من الأغلبية المنوَّمة مغناطيسيًا) نظامًا سلطويًا جديدًا من ابتكاره. كتب «هيرمان راوشنينغ» سنة ١٩٣٩ قائلا : «يُكِنُّ هتلر احترامًا عميقًا للكنيسة الكاثوليكية وللطّائفة اليسوعية، لا يفعل ذلك بسبب عقيدتهم المسيحية، بل بسبب «الآلية» التي طوّرتاها وسيطرتا عليها، ونظامهما الهرمي، وتكتيكاتهما البالغة الذّكاء، إضافة إلى معرفتهما العميقة بالطّبيعة البشرية واستخدامهما الحكيم للضّعف البشري من أجل السّيطرة على

متّبعيها من المؤمنين». نظامٌ كنسي دون الدّيانة المسيحية، انضباطٌ يشبه قواعد الرّهبنة لكنّه ليس من أجل الرّب ولا من أجل بلوغ الخلاص الشّخصي، بل من أجل الدّولة، والمجد والقوّة الأعظمين للدّيماغوجي الذي أصبح قائدًا - كان ذلك هو الهدف الذي يسعى إليه من خلال التّحريك المنهجي للحشود.

دعونا نلقي بنظرة عمّا كان اعتقادُ هتلر بخصوص الحشود التي يحرّكها، وكيفية قيامه بذلك التّحريك. المبدأ الأوّل الذي انطلق منه كان حُكْمًا قيميًا: «الحشودُ شديدةُ الحقارة»؛ فهي عاجزة عن التّفكير بصورة مُجرَّدة، كما هي غير مهتمّة بأيّ حقائق خارجة عن دائرة تجربتها المباشرة. لا يُحدَّد سلوكها عن طريق المعرفة والعقل، بل عن طريق المشاعر والدّوافع اللّاواعية. وقد زُرِعت في هذه الدّوافع والمشاعر «جذورُ مواقفها الإيجابية منها والسّلبية على حدٍّ سواء». لينجح، يتوجّب على صانع البروباجاندا أن يتعلّم كيفية التّلاعب بهذه الغرائز والعواطف. لم تكن القوّة الدّافعة التي أحدثت أعظم الثّورات على هذه الأرض أبدًا نتاجَ ملخّص تعاليم عِلمية اكتسبت قوّةً تأثيرية على الحشود، إنّما كان دائمًا التّفاني هو ما ألهمها، وغالبًا، نوعًا من الهستيريا هو من دفع بها نحو التّحرك. على كلّ من يرغب في كسب الحشود إلى جانبه أن يعرف المفتاح الذي سيفتح باب قلوبها ... أي بلغة خطابٍ ما بعد فرويدي، عليه أن يعرف بابَ لاوعيها.

أولئك الذين أغراهم نداء هتلر وانجذبوا له أكثر من غيرهم كانوا المنتمين للطّبقات الدُّنيا من الطّبقة الوسطى، والذين دُمِّروا جرّاء تضخّم عام ١٩٢٣، ثمّ دُمِّروا من جديد جرّاء

الكساد الاقتصادي سنة ١٩٢٩، والسّنوات التي تلت. «الحشود» التي يتكلّم عنها هي تلك الملايين من الأشخاص المذهولين، المُحبَطين والمصابين بقلق مزمن. وليزيد من شبههم أكثر بالتّكتّل، وليصبحوا أدنى مقامًا من البشر بشكلٍ متجانس أكثرَ، قام بتجميعهم بالآلاف وبعشرات الآلاف في قاعات واسعة وحلبات كبيرة؛ هناك، أمكن للأفراد أن يفقدوا هويّتهم الشّخصية، وحتّى إنسانيتهم الأساسية، ليندمجوا في الحشد وضمنه. يتواصل الرّجل أو تتواصل المرأة مباشرةً مع المجتمع بطريقتين: إمّا كعضوٍ في مجموعة عائلية أو مهنية أو دينية، إمّا كعضوٍ ضمنَ حشد معيّن. بإمكان المجموعات أن تكون أخلاقيةً وذكيّة تمامًا مثل الأفراد الذين يشكّلونها؛ بينما تكون الحشودُ فوضوية، لا هدف لها ككيانٍ، قادرة على أيِّ شيءٍ باستثناء الحركة الذّكية والتّفكير الواقعي. عند تجمّعهم ضمن الحشد، يفقد النّاس قدرتهم على التّفكير وعلى الاختيار الأخلاقي. تزداد قابليتهم للإيحاء إلى الحدّ الذي تتوقّف فيه عندهم قدرتهم على الحكم بشكل عقلاني على الأشياء، أو التّحكّم في الإرادة الحرّة. يصبحون شديدي الانفعال، ويفقدون كلّ حسٍّ بالمسؤولية الفردية أو الجماعية، كما يصبحون عرضة لذرى ونوبات مفاجئة من الغضب والحماس والذّعر. باختصار، يتصرّف الإنسان وسط حشد وكأنّه تجرّع جرعةً كبيرة من مسكر قويّ المفعول، ليصبح ضحّية ما كنت قد أسميته «تسمّم القطيع». مثل الكحول، يُعَدّ تسمّم القطيع عقارًا نشطًا يجعل الفرد يخرج من ذاته. يهرب الفرد المتسمّم ضمن القطيع من المسؤولية، ويتملّص من الذّكاء والأخلاق إلى نوعٍ من اللّاعقلانية الحيوانية المحمومة.

خلال حياته المهنية الطّويلة كمُحرِّض، درس هتلر آثارَ مفعول تسمّم القطيع، وتعلّم كيفية استغلاله لأهدافه الشّخصية. واكتشف أنّ بإمكان الخطيب مناشدة تلك «القوى الخفيّة» التي تحفّز تصرّفات البشر، بطريقة تتجاوز فعاليتها بكثير قدرة الكاتب على فعل ذلك. تبقى القراءة نشاطًا خصوصيًا لا جماعيًا؛ فبينما يخاطب الكاتب أفرادًا جالسين بمفردهم في حالةٍ من الرّصانة الصّحوة العادية، يحدّث الخطيب حشودًا من الأفراد الذّين هُيِّئوا بالفعل بتسمّم القطيع. يصبحون تحت رحمته، ولو كان ضليعًا متمكّنا من عمله حقًا، بإمكانه أن يفعل بهم إذن ما يشاء. باعتباره خطيبًا، كان هتلر متمكّنا مّما كان يقوم به بشكلٍ فريد. كان قادرًا، على حدّ تعبيره هو، أن يتبّع المؤشّرات التي يُقدِّمها الحشد الغفير بحيث تقترح عليه مشاعرُ مستمعيه الحيّة المتوهّجة الكلمةَ المناسبة التي يحتاجها، وأن يعيد بدوره نقلَ هذه الكلمة مباشرةً إلى قلب مستمعيه. وصفه «أوتوشتراسر» بـ «مكبّر الصّوت المعلِن عن أكثر الرّغبات سريةً، وعن الغرائز التي لا تُقبَل، وعن معاناة أمّةٍ برمّتها وثوراتها الشّخصية». قبل أن يشرع العلماء في «ماديسون أفينيو» في «البحث التّحفيزي» بعشرين عامًا، كان هتلر يستكشف ويستغلّ بمنهجية مخاوفَ الحشود الألمانية وآمالها السّرية، رغباتها الشّديدة وما تتوق إليه، وأيضًا قلقَها وإحباطها. يدفعنا خبراء الإعلان من خلال التلّاعب بـ «القوى الخفيّة» إلى شراء بضائعهم - التي قد تكون معجون أسنان، ماركة معيّنة من السّجائر، أو مرشّحًا سياسيًا. و من خلال مناشدة القوى الخفيّة نفسها – وقوًى أخرى شديدة الخطورة لدرجة أنّه لا يمكن لـ «ماديسون أفنيو» التّدخل فيها للتّلاعب

بها -حثّ هتلر الحشودَ الألمانية على شراء فوهرر، فلسفةً جنونية، ومعهما الحرب العالمية الثّانية.

على العكس من الحشود، يميل المثقّفون للعقلانية ويهتمّون بالحقائق. تجعلهم عاداتهم النّقدية مقاومين لنوع البروباجاندا التي تكون فعّالة جدًّا عند الأغلبية السّاحقة. عند الحشود، تُعَدّ «الغريزة هي الأسمى، ومن الغريزة ينبع الإيمان... بينما تُوحِّد عناصرُ الشّعب السّليمة صفوفَها بطريقة فطرية لتُشكِّل مجتمعًا» (وغنيّ عن القول أنّ ذلك يتمّ تحت قيادة زعيم) «وهكذا يجري المثقّفون في هذه الطّريق وتلك، مثل الدّجاج في خمّ الدّواجن. لا يمكن صنع التّاريخ بهم، فقط استخدامهم كعناصرَ تكوّن مجتمعًا». المثقّفون هم من نوع الأشخاص الذين يشترطون الأدلّة، ويُصدَمون من تناقضات المنطق والمغالطات. ينظرون إلى الإفراط في التّبسيط على أنّه خطيئةُ العقل الأصلية، كما هم في غنًى عن الشّعارات، والتّأكيدات غير المشروطة والتّعميمات التّعسفية التي هي في الحقيقة مخزون صانع البروباجاندا. كتب هتلر: «على كلّ بروباجاندا أن تقتصر على أدنى الضّروريات، يجب إذن أن يُعبَّر عنها من خلال بضع الصّيغ النّمطية المحدودة». يجب تكرار هذه الصّيغ النّمطية بشكل مستمر، لأنّه وحده «التّكرار المستمر الثّابت هو ما سينجح أخيراً في طبع فكرةٍ على ذاكرة الحشود». تُعلّمنا الفلسفة الشّكَ والشّعور بعدم اليقين بشأن ما يبدو لنا بديهيا من أشياء؛ فيما تعلّمنا البروباجاندا من الجانب الآخر أن نتقبّل على أنّها بديهية أشياءً سيكون من المنطقي تعليق حكمنا بشأنها، ومن العقلاني التّشكيك فيها. هدف الدّيماغوجي هو

خلق تلاحم وتماسكٍ اجتماعي تحت قيادته. ولكن، كما أشار إلى ذلك «برتراند راسل»، فإنّ «الأنظمة الدّوغماتية التي تفتقر للرّكيزة وللأسس التّجريبية، مثل المذهبية الدّينية الكلامية، والماركسية والفاشية، تتمتّع بميزة قدرتها على خلق قدر كبير من التّلاحم الاجتماعي بين صفوف أتباعها». لذلك يتوجّب على صانع البروباجاندا الدّيماغوجي أن يظلّ باستمرار دوغماتيًا؛ فكلّ أقواله غير مشروطة؛ ولا وجود للأطياف الرّمادية في تصويره للعالم؛ كلّ شيء عنده إمّا أسودٌ بسوادٍ شيطاني أو أبيضٌ سماوي. على حسب قول هتلر، يجب على صانع البروباجاندا الدّاعية أن يتبنّى «موقفًا أحادي الجانب بشكلٍ ممنهج تجاه كلّ مشكلة عليه التّعامل معها». يجب عليه ألّا يعترف أبدًا أنّ بإمكانه أن يكون مخطئًا، أو أنّ بإمكان أشخاصٍ ذوي وجهة نظر مختلفة أن يكونوا على حقّ ولو جزئيًا. لا ينبغي التّناقش مع الخصوم؛ بل تجب مهاجمتهم، إسكاتهم، أو تصفيتهم إذا ما تحوّلوا إلى مصدر إزعاج كبير. قد يُصدَم المثقّف شديد الحساسية أخلاقيًا من هذا النّوع من التّصرّفات. لكنّ الحشود تبقى مقتنعة دائمًا بأنّ «الحقّ يظلّ دائمًا إلى جانب المعتدي».

كان هذا إذن هو رأي هتلر في الإنسانية ضمن صفوف الحشود؛ وهو رأيٌ بغيضٌ جدًّا. لكن هل كان أيضًا رأيًا خاطئًا؟ تُعرف الشّجرة من ثمارها؛ فلا بدّ إذن على نظرية عن الطّبيعة البشرية التي ألهمت نوعًا من التّقنيات التي أثبتت فعاليتها الرّهيبة أن تحتوي على الأقلّ على عنصرٍ واحدٍ من الحقيقة. تنتمي ميزتا الفضيلة والذّكاء إلى البشر بصفتهم أفرادًا يرتبطون بحرية وبملء إرادتهم مع أفرادٍ آخرين ضمن مجموعات

صغيرة؛ وكذلك الخطيئة والغباء. لكنّ الغرور ما دون الإنساني الذي يناشده الديماغوجي ويحاول إغراءه، تلك السّذاجة الأخلاقية والغباء التي يعتمد عليهما عندما يدفع بضحاياه إلى التّصرف، كلّها ليست من مميّزات الرّجال والنّساء بصفتهم أفرادًا، بل من مميّزات الرّجال والنّساء عند تواجدهم ضمن الحشود. ليس الغرور والحماقة الأخلاقية سماتٍ بشرية مميِّزة؛ بل أعراض التّعرض لتسمّم القطيع. يخصّ الخلاص والتّنوير في جميع الدّيانات العليا في العالم الأفراد؛ ويكمن ملكوت السّماء داخل عقل الفرد، لا ضمن غرور الحشود الجماعي اللّاعقلاني. وَعَدَ المسيح بأن يكون حاضرًا حيثما اجتمع شخصان أو ثلاثةٌ معًا؛ لكنّه لم يقل شيئًا عن تواجده حيثما يسمّم الآلاف بعضهم البعض بسمّ القطيع. في ظلّ الحكم النّازي، أُجبرت أعدادٌ هائلةٌ من البشر على قضاء وقت هائل في السّير في صفوف متسلسلة من النقطة (أ) إلى النّقطة (ب)، ثمّ العودة إلى النّقطة (أ) من جديد. «بدا إبقاءُ الشّعب كلّه في تلك الحركة وكأنّه هدرٌ لا معنى له للوقت والطّاقة. لكن بعد ذلك بوقت طويل، يضيف «هيرمان راوشنينج»، كُشِف عن نيّة خفيّة استندت على توفيقٍ مدروس بعناية للغايات والوسائل. فالمشي على وقع خطى منتظمة يشتّت أفكار الإنسان. المشيُ يقتل الأفكار. والمشي يضع حدًّا للفردانية. المشي هو لمسة العصا السّحرية الضّرورية لتعويد النّاس على نشاط ميكانيكي يكاد يكون شعائريًا حتّى ينتهي به الأمر بأن يتجذّر ويتأصّل كطبيعةٍ ثانيةٍ».

من وجهة نظره، وفي المستوى الذي اختارَ أن ينفّذ عمله المروّع منه، كان هتلر مُحقًّا تمامًا في تقديره للطبّيعة البشرية.

بالنّسبة لمن ينظرون من بيننا إلى الرّجال والنّساء كأفراد لا بصفتهم أعضاءً ينتمون إلى حشود أو مجموعات منظّمة، يبدو أنّه مخطئٌ تمامًا. في عصر تسارع الزّيادة السّكانية، وتسارع الإفراط في التّنظيم، عصر وسائل الاتّصال الأكثر فاعلية، كيف يمكننا الحفاظ على تمام الفرد البشري وإعادة تأكيد قيمته؟ الآن، لا يزال بالإمكان طرح هذا السّؤال وربّما حتّى الإجابة عنه بشكل فعّال. لأنّه وبعد جيلٍ من الآن، يمكن أن يكون الأوان قد فات على إيجاد إجابة، وربّما سيصبح في المناخ الجماعي الخانق لذلك المستقبل طرحُ هذا السّؤال حتّى مستحيلًا.

الفصل السادس

فنون البيع

يعتمد الإبقاءُ على الدّيمقراطية على تمكّن أعدادٍ هائلة من النّاس من القيام بخيارات واقعية، وهم يحوزون على القدر الكافي من المعلومات المناسبة. من النّاحية الأخرى، تُبقي الدّيكتاتورية على نفسها وتحافظ عليها من خلال فرض رقابةٍ على الحقائق أو تشويهها، لا عن طريق مناشدة العقل أو المصلحة الذّاتية المقتنِعة، بل العاطفة والأحكام المُسبَقة، بالإضافة إلى مناشدة القوى «الخفية القديرة»، كما أسماها هتلر، المتواجدة في أعماقِ لاوعي كلّ عقلٍ بشري.

في الغرب، يُعلَن عن المبادئ الدّيمقراطية ويُجهَر بها، ويَبذُل العديد من الصّحفيّين المتمكّنين الجادّين قصارَى جهدهم لتزويد النّاخبين بالمعلومات اللّازمة بهدف إقناعهم من خلال الحجّة العقلانية والمنطقية، ليقوم هؤلاء بخيارات واقعية على ضوء تلك المعلومات. إلى غاية هذه النّقطة، كلّ هذا جيّدٌ جدًّا بالفعل، لكن لسوء الحظ، في الدّيمقراطيات الغربية عامّة، وفي أمريكا خاصّة، للدّعاية وجهان وشخصيّةٌ منفصمة. غالبًا ما يكون هنالك «دكتور جيكيل» كمسؤول عن قسم التّحرير - وهو من نوع صنّاع البروباجاندا الذين يسعدون كثيراً لو تمكّنوا من إثبات أنّ «جون ديوي» محقّ بشأن قدرة الطّبيعة البشرية على الاستجابة للحقيقة والعقل والمنطق.

لكـن لا يتحكّـم هـذا الرّجـل الجديـر في الحقيقـة إلّا في جـزءٍ مـن آليّـة وسـائل الإعـلام فقـط. كمسـؤولٍ عـن الإشـهار، نَجِـدُ شـخصًا آخـرًا معـاد للديمقراطيـة، لأنّـه معـادٍ ومناهـض للعقلانيـة، وهـو السّـيد «هايـد» - أو بالأحـرى الدّكتـور «هايـد»، ذلـك لأنّ «هايـد» في فترتنـا الحاليـة تحصّـل عـلى درجـة الدكتـوراه في علـم النّفـس، وعـلى درجـة الماجسـتير في العلـوم الاجتماعيـة أيضًـا. سيسـتاء بالفعـل الدّكتـور «هايـد» هـذا للغايـة لـو أنّ الجميـع ارتقـوا إلى إيمـان «جـون ديـوي» بالطّبيعـة البشريـة واسـتحقّوا ثقتـه بهـم. فالحقيقـة والعقلنـة شـؤونٌ تخـصّ «جيكيـل»، ولا تخصّـه هـو. «هايـد» محلّـلٌ تحفيـزي، مهمّتـه دراسـة نقـاط الضّعـف البـشري وفشـله، والتّحقيـق في تلـك الرّغبـات والمخـاوف اللّاواعيـة التـي تُحـدِّدُ الكثـيرَ مـن تفكـير البـشر الواعـي وتصرّفاتهـم العلنيـة. هـو لا يفعـل ذلـك بدافـع روحِ الأخلاقـيّ الـذي يـودّ أن يجعـلَ النّـاسَ عـلى أفضـل حـالٍ ممكنـة، ولا بـروح الطّبيـب الرّاغـب في تحسـين مسـتواهم الصّحـي، بـل ببسـاطة بهـدف اكتشـاف أفضـل طريقـة للاسـتفادة مـن جهلهـم، واسـتغلال اللّاعقلانيـة مـن أجـل المنفعـة الماليـة للّذيـن يعمـل لصالحهـم. يمكـن القـول في الأخـير أنّ «الرّأسـمالية قـد ماتـت، وأنّـه الآن العـصرُ الـذي يسـودُ فيـه الاسـتهلاك كالملـك في سـلطانه»- إذ تتطلّـب الاسـتهلاكيّةُ خدمـات باعـةٍ خـبراءَ متمرّسـين في جميـع فنـون الإقنـاع (بمـا في ذلـك الفنـون الأكـثر مكـرًا وخداعًـا). تحـت نظـام المشـاريع الحـرّة، تُعتـبَر البروباجانـدا وفي جميـع الأحـوال ضرورةً أساسـية لا غنـى عنهـا. لكـن ليـس مـا هـو ضروريٌّ بالـضّرورة هـو المرغـوب فيـه. مـا هـو جيّـدٌ بشـكلٍ يمكـن البرهنـة عليـه في مجـال الاقتصـاد، قـد يكـون ضـارًّا للرّجـال والنسـاء بصفتهـم ناخبـين، أو حتّـى بصفتهـم

بشرًا. قد يُصدَمُ بشدّة الآنَ جيلٌ سابقٌ كان يتحلّى بأخلاقية أكبرَ من التّهكم الفاضح لمختصّي التّحليل التّحفيزي. عندما نقرأ اليومَ كتابًا مثل «المقنّعون الخفيّون» لمؤلّفه السّيد «فانس باكارد»، نجد أنفسنا نشعر بالتّسلية أكثرَ من شعورنا بالرّعب، وبالاستسلام أكثر من شعورنا بالسّخط. بالنّظر إلى كلٍّ من علم النّفس الفرويدي، وعلم السّلوكيات، وحاجة المنتِج الضّخم الماسّة اليائسة بشكل مزمن إلى استهلاك الحشود الضّخم، لا يسعنا سوى توقّع هذا. لكنّنا قد نتساءل، ما طبيعة الشّيء الذي علينا توقّعه في المستقبل؟ هل تتوافق أنشطة «هايد» على المدى البعيد مع أنشطة «جيكيل»؟ هل بإمكان حملةٍ لصالح العقلانية أن تنجح وهي بين أنياب حملةٍ أخرى أعتى وأشدّ لصالح اللّاعقلانية؟ لن أحاول الإجابة على هذه أسئلة في الوقت الحالي، بل سأتركها معلّقة إن جاز القول كخلفية عند مناقشتنا لأساليب الإقناع الجماهيري في ظلّ مجتمع ديمقراطي متقدّمٍ تكنولوجيًا.

مهمّة صانع الدّعاية والبروباجاندا التّجارية في دولة ديمقراطية هي في بعض النّواحي أسهل، وفي نواحٍ أخرى أكثر صعوبة من مهمّة صانع البروباجاندا السّياسية الموظَّف من قِبل دكتاتور مترسّخ، أو ديكتاتور في طور التّكوّن. هي مهمّة أسهل لأنّ لدى الجميع تقريبًا في البدء حكم مسبق إيجابي لصالح منتوجات كالجعة، والسّجائر والثّلاجات؛ بينما لا ينطلق أيٌّ كان بحكم مسبق إيجابي متحيّز لصالح الطّغاة. وهي مهمّة أكثر صعوبة لأنّه لا يحقّ لصانع البروباجاندا -وذلك وفقًا لقواعد لعبته الخاصة- مناشدة أكثر الغرائز وحشيةً لدى جمهوره.

سيَسعد كثيراً مروّج منتجات الألبان لو تمكّن من إخبار قرّائه ومستمعيه أنّ السّبب وراء جميع مشاكلهم هو مكائد عصابة دولية من مصنّعي «المارجرين» لا تعترف بالقانون، وأنّ واجبهم الوطني هو الخروج وحرق مصانع أولئك المستبدّين. على كلٍّ، هذا النّوع من الأشياء مُستبعَد، وعليه أن يكتفي بمقاربةٍ أكثرَ اعتدالاً. لكنّ المقاربةَ المعتدلة أقلُّ إثارةً من المقاربة التي تنتهج أسلوبَ العنف اللّفظي أو الجسدي. على المدى الطويل، الغضبُ والكراهية مشاعرٌ تهزم ذاتها؛ لكنّها تدرّ على المدى القصير أرباحًا طائلةً على شكل إشباعٍ نفسيّ وحتّى جسدي (نظرًا لكونها مشاعر تؤدّي إلى إفراز كمّيات معتبرة من الأدرينالين والنّورادرينالين). قد يبدأ النّاس من منطلق تحيّزٍ أوّلي ضدّ الطّغاة؛ لكن عندما يشنّ عليهم الطّغاة أو طغاة المستقبل دعايةً تجعلهم يفرزون الأدرينالين، وذلك بسبب فحواها عن مدى كميّة الشّر والدّناءة لدى أعدائهم - خاصّة من الأعداء من هم ضعفاء بما يكفي من القدر الذي يجعلهم عرضةً للاضطهاد -يصبحون حينها على استعداد تام لاتّباعه بحماسة. في خطاباته، ظلّ هتلر يردّد كلماتٍ مثل «الكراهية»، «القوّة»، «انعدام الرّحمة»، «التّحطيم»، «السّحق»، ورافق تلك الكلمات العنيفة بحركات أشدّ عنفًا. كان يصرخ، ويصيح، حتّى تنتفخ عروقه ويصبح وجهه أرجواني اللّون. العاطفةُ الجيّاشة (وهو الأمر الذي يعرفه كلُّ ممثِّلٍ تمامَ المعرفة) مُعْديةٌ إلى أبعد الحدود وأعلى الدّرجات. عندما يتأثّر الخطيب الخبيث بجنون، يتأوّه الجمهورُ وينتحب ويصرخ في عربدةٍ من الشّغف غير المقيّد. إذ كانت تجمّعات العربدة الجماعية تلك ممتعةً جدّا لدرجة أنّ معظمَ من جرّبوها كانوا يرجعون متشوّقين،

يطالبـون بالمزيـد. يتـوق معظمنـا تقريبـا للسّـلام والحريـة؛ لكـن يتمتّـع القليـل جـدًّا منّـا بذلـك القـدر مـن الحـماس للأفـكار والمشـاعر والأفعـال التـي تصنـع فعـلًا السّـلام والحريـة. وبالمثـل، لا أحـدَ يرغـب في الحـرب أو الاسـتبداد؛ لكـنّ يجـد الكثـير مـن النّـاس متعـةً شـديدة في الأفـكار والمشـاعر والأفعـال التـي تـؤدّي إلى الحرب والاسـتبداد. هـذه الأفـكار والمشـاعر والأفعـال غايـة في الخطـورة، بحيـث لا يمكـن اسـتغلالها لأغـراضٍ تجاريـة. وبقبولـه لهـذا العائـق، عـلى صانـع البروباجانـدا أن يعمـل بمشـاعر أقـلَّ تسـميمًا، وأن يسـتخدم أشـكالًا مـن اللّاعقلانيـة أكـثر لطفًـا وأقـلّ حـدّة.

تصبـح البروباجانـدا العقلانيـة الفعّالـة ممكنـةً فقـط عندمـا يوجـد، وذلـك عنـد جميـع المعنيّـين، فهـمٌ واضـحٌ لطبيعـة الرّمـوز وعلاقاتهـا بالأشـياء والأحـداث التـي يُرمَـز إليهـا. بينـما تعتمـد البروباجانـدا اللّاعقلانيـة مـن أجـل فعاليتهـا عـلى الفشـل العـام في فهـم طبيعـة الرّمـوز. يميـل أصحـاب التّفكـير البسـيط إلى مسـاواة الرّمـز بمـا يمثّلـه، وإلى نَسْـبِ بعـض الصّفـات التـي تُعبِّر عنهـا الكلـمات التـي اختارهـا صانـع البروباجانـدا لتَخْـدِم أغراضَـه الخاصّـة إلى الأشـياء والأحـداث، ليتحدّثـوا عنهـا. فلنأخـذ عـلى ذلـك مثـالًا بسـيطًا. تُصنَـع مُعظـم مسـتحضرات التّجميـل مـن مـادّة «اللانولـين»، وهـي مزيـج دهـون الصّـوف المصفّـاة والمـاء الـذي خُفِـقَ عـلى شـكل مُستحلَب. لهـذا المسـتحلب عديـد الخصائـص القيِّمـة: فهـو يتغلغـل عـبر البـشرة، لا يصبـح زنخًـا، إضافـة إلى كونـه معقّـمًا بشـكلٍ معتـدل... ومـا إلى ذلـك. لكـنّ المروّجـين وصنّـاع الإشـهار لا يتحدّثـون عـن فضائـل المسـتحلب الحقيقيـة؛ بـل يعطونـه اسـمًا رائعًـا يسـتدعي الإعجـاب، يتحدّثـون عـن الجـمال الأنثـوي بنشـوةٍ

وبطريقة مُضلِّلة، ويعرضون صورًا لشقراوات فائقات الحسن يشبعن بشرتهن بتلك المراهم المغذّية. كتب أحدهم: «لا يبيع صانعو مستحضرات التّجميل اللّانولين، بل يبيعون الأمل». من أجل هذا الأمل، هذا التّضمين المخادع الواعد بأنّهن سيتغيّرن، ستدفع النّساء عشر أضعاف أو عشرين ضعف قيمة المستحلب الذي ربطه المروّجون بمهارة، وذلك عن طريق رموزٍ مضلِّلة، برغبةٍ أنثوية متأصّلةً تكادُ تكون عالمية - وهي رغبة المرأة في أن تكون أكثر جاذبية لأفراد الجنس الآخر. المبادئ التي يقوم عليها هذا النّوع من البروباجاندا في الحقيقة شديدة البساطة؛ جِدْ رغبةً مشتركةً شائعة، بعضَ الخوف أو القلق اللّاواعي المنتَشِر؛ فَكِّر بطريقةٍ ما لربط تلك الرّغبة أو الخوف بالمنتج الذي تريد بيعه والتّرويج له؛ ثمّ ابنِ جسرًا من الرّموز اللّفظية أو التّصويرية التي يمكن لعميلك أن ينتقل من خلالها من الحقيقة إلى الحلم التّعويضي، ومن الحلم إلى الوهم بأنّ مُنتجَك سيجعلُ الحلمَ يتحقّق مع شرائه. «لم نعد الآن نشتري البرتقال، بل نشتري الحيوية. ولم نعد نشتري مجرّد سيّارة، بل نشتري الأبّهة والبرستيج». وهذا هو الحال مع جميع الأشياء. على سبيل المثال، لم نعد نشتري في معجون الأسنان مجرّد منظّف ومطهّر، بل نحن نتخلّص به من خوفنا من أن نكونَ مثيرين للاشمئزاز جنسيًّا. باقتنائنا الفودكا والويسكي، لسنا نشتري سُمًّا بروتوبلازميًا قد يؤدّي من خلال جرعات صغيرة إلى تثبيط الجهاز العصبي بطريقة نافعة نفسيًا؛ بل نحن نشتري الودّ والرّفقة الجيّدة، ودفءَ «دينغلي ديل» وتألّق حانة «المرمايد». من خلال المسهّلات وملّينات الأمعاء، نشتري صحّةَ إلهٍ يوناني، وإشراق إحدى حوريّات الإلهة «ديانا». وباقتناء أكثر

الكتـب مبيعًـا كلّ شـهر، نتملّـك الثّقافـة، ومعهـا حسـدَ جيراننـا الأقـلّ ثقافـةً واطّلاعًـا ونـنال احـترامَ المثقّفـين. في كلّ واحـدة مـن هـذه الحـالات، وجـد مُحلّـلُ التّحفيـز رغبـةً متجـذّرةً أو خوفًـا متأصّلًا يمكـن اسـتخدام طاقتـه لدفـع المُسـتهلِك للـشّراء، وبالتّـالي وبشـكلٍ غـير مبـاشر، لتحريـك عجـلات الماكنـة الصّناعيـة. هـذه الطّاقـة المخزَّنـة الكامنـة في عقـول وأجسـاد عـددٍ لا يحـصى مـن الأفـراد، يتـمّ إطلاقهـا ونقلهـا عـبرَ سلسـلةٍ مـن الرّمـوز الموضوعـة بعنايـة بهـدف تجـاوز العقلانيـة وتعتيـم المشـكلة الحقيقيـة مـن أجـل إخفائهـا.

أحيانًـا، تؤثّـر الرّمـوز مـن خـلال كونهـا مذهلـةً، هوسـيةً ورائعـةً في حـدّ ذاتهـا. وهـذا هـو نـوع الرّمـوز المرتبـط بطقـوس الدّيـن وأبّهتـه. يقـوّي «جـمالُ القداسـة» الإيمـانَ حيـثُ تواجـد مـن قبـل، فيـما يسـاهم في الاهتـداء إليـه حيثـما غـاب. بينـما تسـتدعي الحـسَّ الجـمالي وحـده، لا تضمـن الرّمـوز لا الحقيقـةَ ولا القيمـةَ الأخلاقيّـة للمذاهـبَ التـي رُبِطـت بهـا بشـكلٍ اعتباطـيٍّ تمامًـا. كمسـألةِ حقيقـةٍ تاريخيـة شـديدة الوضـوح، ضاهـت جماليـاتُ القداسـة جماليـاتَ الرّذيلـة، بـل وتفوّقـت عليهـا غالبًـا. تحـت حكـم هتلـر عـلى سـبيل المثـال، كانـت تجمّعـات «نورمـبرغ» السّـنوية مـن روائـع الطّقـوس والفـنّ المسرحـي. كتـب السّـير «نيفيـل هندرسـون»، السّـفير البريطـاني في ألمانيـا الهتلريـة قائـلًا: «لقـد أمضيـت سـتّ سـنوات في سـانت بطرسـبرغ قبـل الحـرب، في عهـد أفضـل أيّـام الباليـه الـرّوسي القديـم، لكنّـي وفي مجـال الجـمال الفخـم والأبّهـة، لم أرَ قـطّ أيّ باليـه يمكـن مقارنتـه بتجمّـع نورمـبرغ». قـد يفكّـر المـرء في مقولـة «كيتـس» الشّـاعر :

«الجمال هو الحقيقة، والحقيقة هي الجمال». لكن للأسف، لا تتواجد الهويّة إلّا في مستوًى فوقي، يتجاوز هذا العالم. على مستوى السّياسة واللاهوت، يتوافق الجمال تمامًا مع اللّامعنى والاستبداد. ولربّما كان ذلك من حسن الحظّ، فلو لم يكن الأمر كذلك (لو لم يتوافق الجمال مع اللّامعنى والاستبداد)، فلن يتواجد في هذا العالم من الفنّ إلّا الشّيء القليل. أُنتِجت روائع الرّسم والنّحت والعمارة كدعايةٍ دينيةٍ أو سياسية، وكان ذلك من أجل المجد الأسمى لإلهٍ أو حكومةٍ أو نظامٍ كهنوتي. لكنّ معظم الملوك والكهنة كانوا مستبدّين، كما تدنّست كلّ الأديان بالخرافة. وقد خدمت العبقريةُ الاستبدادَ، وروّج الفنُّ لمزايا الطّائفة المحلية. والوقت مع مروره يفصل الفنَّ الجيّد عن الميتافيزيقيا الرّديئة. هل بإمكاننا أن نتعلّم كيفية الفصل هذه، وأن نفعل ذلك لا بعد مرور الأحداث بفترة، بل عندما تكون في صدد الوقوع مباشرة؟ هنالك يكمن مربط الفرس، وذلك هو السّؤال الجدير بأن يطرح.

في الدّعاية التّجارية، ما هو غير متّسق هو أنّ مبدأ الرّمز المبهر يُفهَم بشكلٍ واضح. لكلّ صانع دعاية قِسْمُه الفنّي الخاص به، وباستمرار، تُبذَل محاولاتٌ لتجميل اللّوحات الإعلانية بملصقاتٍ ملفتة للنّظر، وتزيين صفحات المجلّات الإعلانية برسومات وصور تنبض بالحياة. لا وجود لروائع فنيّة في هذا المجال، ذلك أنّ الرّوائع لا تروقُ أو تخاطب إلّا جمهورًا محدودًا، بينما تسعى الدّعاية التّجارية لجذب الأغلبية السّاحقة. المثال الأعلى بالنّسبة له هو امتيازٌ معتدل. قد يكون من المتوقّع ممّن يحبّون هذا الفنّ الذي ليس في حدّ ذاته جيّدًا جدًا لكنّه

ملفتٌ للنّظر بشكلٍ كافٍ، أن يحبّوا المنتجات التي ارتبط بها، والتي يمثّلها رمزيًا.

مثالٌ آخر للرّمز المبهر بشكلٍ غير متناسب هو الإعلان الغنائي. الإعلانات التّجارية الغنائية اختراعٌ حديث؛ لكنّ الغناء اللّاهوتي والغناء التّعبدي - الترنيمة والمزمور - قديمان قدم الدّين نفسه. غناء العسكر، أو أغاني المسيرات من عمر الحرب؛ كما استُخدم غناء الوطنيّين الذي يعتبر تمهيدًا لأناشيدنا الوطنية بلا شكّ لتعزيز التّضامن الجماعي، وللتّشديد على التّمييز بين «نحن» و «هُمْ»، من طرف مجموعات الصّيادين وجامعي الثّمار في العصر الحجري. تجذب الموسيقى معظمَ النّاس بشكلٍ فطري؛ بالإضافة إلى ميل الألحان لترسيخ نفسها في ذهن المستمع. يسكن اللّحن الذّاكرة لمدّة عمرٍ بأكمله. هنا، على سبيل المثال، تأكيدٌ أو حُكْمٌ على القيم غير مثير للاهتمام إطلاقًا. وكما هو على حاله هذه، لن يعيره أيٌّ كان أدنى اهتمام. لكن اضبُط الآن الكلمات على نغمة جذّابة يسهل تذكّرها، وعلى الفور ستصبحُ الكلماتُ قوية. علاوة على ذلك، ستميل الكلمات إلى تكرار نفسها بشكل أوتوماتيكي في كلّ مرّة يُسمَع فيها اللّحن المرتبط بها، أو يتم تذكّرها تلقائيًا. تحالف «أورفيوس» مع «بافلوف»- عندما تحالفت قوّة فعالية الصّوت مع المنعكس الشّرطي. بالنّسبة لصانع الدّعاية التّجارية، مثلما هو الحال بالنّسبة لنظرائه في مجالَيْ السّياسة والدّين، فللموسيقى ميزةٌ أخرى. اللّامعنى والهراء الذي سيكون من المخجل لكائنٍ عاقلٍ كتابته، قوله أو سماعه يُنطَق، يصبح من الممكن أن يغنّيه أو يستمع إليه منشَدًا ذلك الكائن العقلاني نفسه بكلّ سرورٍ،

وحتّى بنوعٍ من القناعة الفكرية. هل يمكننا أن نتعلّم الفصل بين متعة الغناء أو متعة الاستماع إلى الأغنية، وبين الميول البشري لتصديق الدّعاية التي تقدّمها تلك الأغنية؟ ذلك من جديد هو التّساؤل، وهنالك يكمن مربط الفرس.

بفضل التّعليم الإلزامي والصّحافة الواسعة الانتشار، تمكّن صانع الدّعاية خلال السّنوات الماضية من إيصال رسائله تقريبًا إلى كلّ شخصٍ بالغٍ في كلّ بلد متحضّر. اليوم، وبفضل الإذاعة والتّلفزيون، صار في الوضع الرّائع الذي يمكّنه من التّواصل حتّى مع الأميّين من البالغين والأطفال الذين لم يبلغوا بعد سنّ التّمدرس.

كما هو متوقّع، الأطفالُ أشدّ تأثّرًا بالدّعاية. فهم يجهلون كلّ شيء عن العالم وطرق تعاملاته، وبالتّالي يفتقرون كليّا للحذر ولعامل التّشكيك؛ فقدراتهم النّقدية لم تتطوّر بعد. لم يبلغ بعدُ أصغرهم سنَّ الفهم، ويفتقر أكبرهم إلى الخبرة التي تمكّن عقلانيتهم المكتسبة حديثًا من العمل بشكلٍ فعّال. في أوروبا، كان يُطلَق على المجنّدين الجدد بطريقة هزلية كنية «علف المدافع». أمّا إخوتهم وأخواتهم الصّغار الآن فقد أصبحوا «علفًا» للإذاعة والتّلفزيون. في طفولتي، تعلّمنا أن ننشد أغاني الأطفال، وفي البيوت المتديّنة، التّرانيم. أمّا اليوم، فيدندن الصّغار الإعلانات التّجارية الغنائية. ما الأفضل يا ترى؟ هل هي هدهدات الأطفال أم أغاني الإعلانات التي تتغنّى بالجعة؟ من يدري؟

«لست بصدد القول أنّ من الضّروري إجبارُ الأطفال على

مضايقـة أوليائهـم كي يشـتروا المنتجـات التـي شـاهدوا الإعلانـات عنهـا عـلى شاشـات التلفزيـون، لكـن لا يمكنني في الوقـت نفسـه إنـكار حقيقـة أنّ هـذا هـو مـا يحـدث كلَّ يـوم». هـذا مـا يكتبـه نجـمٌ مـن نجـوم عديـد البرامـج الموجّهـة لجمهـور النّاشـئة. ويضيف قائـلا : «الأطفـال عبارة عـن مسـجّلات حيّـة ناطقـة لـكلّ مـا نقولـه لهـم كلَّ يـوم». وسـتَكْبُر المسـجّلاتُ الحيّـة لإعلانـات التّلفزيـون التّجاريـة، وستكسـب المـال لتشـتري المنتجـات التـي تقدّمهـا الصّناعـة. كتـبَ السّـيد «كلايـد ميلـر» بحماسـة: «خـذ بعـين الاعتبار مـا الـذي يعنيـه بالنّسـبة لشركتـك مـن أربـاح لـو أنّـك اسـتطعتَ تكييـف مليـون أو عـشرة ملايـين طفـل، والذيـن سينشـأون ليصبحـوا أشـخاصًا بالغـين مدرّبـين عـلى شراء منتجـك، تمامًـا كـما يُـدرَّب الجنـود مقدّمًـا عـلى المـشي والتّقـدّم عندمـا يسـمعون أوامـرَ التّقـدّم في الكلـمات المحفّـزة : إلى الأمـام سِرْ!» نعـم، فكّـر في الأمـر فحسـب! وتذكّـر في الوقـت نفسـه أنّ الدّكتاتوريـين والدّكتاتوريـين المسـتقبليين ظلّـوا يفكّـرون في هـذا النّـوع مـن الأشـياء لسـنوات عـدّة، وأنّ ملايـين، عـشرات الملايـين، بـل مئـات الملايـين مـن الأطفـال هـم بصـدد النّمـو لـشراء منتـج الدّيكتاتـور المحـليّ الأيديولوجـي، مثـل جنـودٍ مدرَّبـين تدريبـاً جيّـداً ليتجاوبـوا بالسّـلوك المناسـب مـع الكلـمات المحفّـزة التـي زُرِعـت في عقـول هـؤلاء الشـباب مـن قبـل صنّـاع الدّعايـة الذيـن يعملـون لصالـح الطّغـاة.

علاقــةُ الحكــم الــذّاتي بتزايــد أعــداد السّــكان هــي علاقــةُ نســبةٍ عكسـية. إذ كلّـما اتّسـعت الدّائـرة الانتخابيـة وكـبرت مـن حيـث التّعـداد، كلّـما قلّـت قيمـة أيّ تصويـتٍ مهـما كان. عندمـا يكـون مجـرّدَ واحـدٍ مـن بـين الملايـين، يشـعرُ النّاخـبُ عـلى مسـتواه الفردي

بالعجز، وبأنّه كَمٌّ لا يُحتسَب. المرّشحون الذين صوّت لصالحهم ومكّنهم من مناصبهم بعيدون عنه كلّ البعد، بتواجدهم على قمّة هرم السّلطة. هم نظريًا خَدَمُ الشّعب، لكن في الواقع، الخدمُ هم من يصدرون الأوامر، والشّعب المتواجد بعيدًا جدًّا عند قاعدة الهرم الكبير هو من تتوجّب عليه الطّاعة. أدّت الزّيادة السّكانية والتّقدم التكنولوجي المحرز إلى زيادةٍ في عدد التّنظيمات وفي مدى تعقيدها أيضًا، إضافةً إلى زيادة في مقدار السّلطة المركّزة في أيدي المسؤولين، وبالموازاة، أدّت إلى انخفاضٍ متوازٍ في مقدار السّيطرة الممارَسة من قبل النّاخبين؛ ويرافق كلّ ذلك انعدامٌ لاحترام الشّعب للإجراءات الدّيمقراطية. بعد أن أُضعِفت بالفعل بسبب تأثير القوى غير الشّخصية الهائلة المؤثّرة في العالم الحديث، تُقوَّض الآن المؤسّساتُ الدّيمقراطية من الدّاخل من قبل السّياسيين وصنّاع دعايتهم.

يتصرّف البشر بناءً على عدد كبير ومتنوّعٍ من الطّرق اللّاعقلانية، لكن يبدو أنّ جميعهم قادرون، إذا ما أُتيحَت لهم فرصةٌ عادلة، على اتّخاذ خيار معقول في ضوء الأدلّة المُتاحة لهم. لا يمكن إنجاح عمل المؤسّسات الديمقراطية إلّا إذا بذل جميع المعنيين قصارى جهدهم لتعميم المعرفة وتشجيع العقلانية. لكن اليوم، وفي أقوى ديمقراطية في العالم، يُفضِّل السّياسيون وصنّاع دعايتهم رمي جميع الإجراءات الدّيمقراطية عرض الحائط، ذلك وبشكل يكاد يكون حصريًا من خلال مناشدة جهل النّاخبين ولاعقلانيتهم. قال لنا في عام ١٩٥٦ رئيس تحرير مجلّة أعمالٍ رائدة: «سيروّج كلا الحزبان لمرشحَيْهما وقضاياهما بالأساليب نفسها التي طوّرتها التّجارة لبيع البضائع.

ويشـمل هـذا الاختيـارَ العلمـيَّ للإغـراءات والتّكـرار المقصـود المنهـج... وسـتُكرِّر الإعلانـات الإذاعيـة والإشـهارات جُمَـلًا بحـدّة محسـوبة بدقّـة. بينـما سـترفع اللّوحـات الإعلانيـة شـعارات مُثبَتـةَ الفعاليـة... يحتـاج المرشـحون، إضافـةً إلى أصـواتٍ جهـيرة وإلقـاءٍ جيّـد، أن يكونـوا قادريـن عـلى النّظـر «بصـدق» إلى عدسـة كامـيرا التّلفزيـون».

يناشـد التجّـار السّياسـيون نقـاط ضعـف النّاخبـين وحدَهـا، لا طاقتهـم المحتمَلـة أبـدًا. ولا يقومـون بـأدنى محاولـة هدفهـا تثقيـف الجماهـير وتنويرهـا لتصبـح قـادرةً عـلى الحكـم الـذّاتي؛ بـل يكتفـون باسـتغلالها والتّلاعـب بهـا. ولهـذا الغـرض، يتـمّ تعبئـة جميـع مـوارد علـم النّفـس والعلـوم الاجتماعيـة لاسـتعمالها وتوظيفهـا؛ كـما يتـمّ انتقـاء عيّنـات مـن النّاخبـين بعنايـة فائقـة مـن أجـل «مقابـلات متعمّقـة». تكشـف تلـك المقابـلات والحـوارات المتعمّقـة عـن المخـاوف والرّغبـات اللّاواعيـة السّـائدة في مجتمـع معـيّن أثنـاء فـترة العمليـة الانتخابيـة. العبـارات والصّـور التـي يكـون الهـدف منهـا هـو تهدئـة تلـك المخـاوف، أو تعزيزهـا إذا مـا لـزم الأمـر، أو إشـباع تلـك الرّغبـات ولـو بشـكل رمـزي عـلى الأقـل، يتـمّ انتقاءهـا واختيارهـا مـن قبـل الخـبراء وتجريبهـا عـلى القُـرّاء والجماهـير، ومـن ثـمّ تغييرهـا أو تحسـينها في ضـوء المعلومـات التي تـمّ تحصيلهـا بتلـك الطّريقـة. تصبـح بعـد ذلـك الحملـة السّياسـية جاهـزةً للإعـلام الجماهـيري عـلى نطـاقٍ أوسـع. كلّ مـا يتطلّبـه الأمـر الآن هـو المـال، ومرشّـح بالإمـكان تدريبـه ليبـدو «صادقًـا» بمـا يكفـي. في ظـلّ التّوزيـع الجديـد، فقـدت المبـادئ والخطـط السّياسـية لحركـة معيّنـة هدفهـا ومعظـم أهمّيتهـا. فشـخصية

المرشَّح والطّريقة التي يرسم خبراء الدّعاية بها صورته العلنية هي الأشياء التي تهمّ فعلًا.

بطريقة أو بأخرى، سواءٌ فعل ذلك في صورة الذَّكر المهيمن أو الأب العطوف، على المرشَّح أن يكون فاتنًا ومتألّقًا. وعليه أن يكون أيضًا مسليًّا حتّى لا يملّ منه أبدًا جمهوره المعتاد على التّلفاز والرّاديو، وعلى أن يُشتَّت انتباهه، فهو لا يطيق أن يُطلَب منه التّركيز، ولا بذل أدنى جهد فكريّ لفترة مطوّلة. ولذلك توجّب على جميع خطابات المرشّح-المسلّي أن تكون مقتضبة، قصيرةً وسريعة. كما على التّعامل مع قضايا السّاعة الكبرى وتناولها أن يتمّ في مدّة خمس دقائق على الأكثر - والأفضل أن يكون ذلك في مدّة ستّين ثانية (لأنّ الجمهور سيحرص على الانتقال لمواضيع أكثر بهجة من موضوع التّضخم، أو مسألة القنبلة الهيدروجينية). طبيعةُ الخطابة كانت دائمًا ميل السّياسيين ورجال الدّين للمبالغة في تبسيط القضايا المعقّدة. ومن على المنبر أو أيّ منصّة، يجد حتّى أكثر الخطباء جديّة صعوبةً بالغة في قول الحقيقة كاملةً. فالأساليب المستخدمة الآن لتسويق المرشّح السّياسي كما لو كان قارورةَ مزيلٍ للعرق، تضمن بشكل أكيد عدم سماع النّاخبين الحقيقةَ بخصوص أيّ شأنٍ كان، على الإطلاق.

الفصل السابع:

غسيل الأدمغة

في الفصلين السّابقين، كنتُ قد وصفت التّقنيات التي بالإمكان تسميتها بتقنيات التّلاعب بالعقول بالجملة، مثلما مارسها أعظمُ الدّيماغوجيين على الإطلاق، وأنجح الباعة في التّاريخ. لكن، لا توجد أيّ مشكلة إنسانية بالإمكان حلّها باستخدام تقنيات البيع بالجملة وحدَها. كما للمسدّس مكانه ودوره، كذلك للحقنة تحت الجلدية مكانها ودورها. لذلك سأصف في الفصول التي تلي بعض الأساليب الأكثر فاعلية والتي لا تستعمل للتّلاعب بالحشود، ولا بالجماهير بأكملها، بل بالشّخص وحده، باعتباره فردًا منعزلا.

في سياق تجاربه حول الانعكاس الشّرطي، والتي أصبحت في وقتنا الحالي قديمة، لاحظ «إيفان بافلوف» أنّه عندما تُعرَّض حيوانات المختبر لضغط جسدي أو نفسي بصورة مُطوَّلة، تظهر عليها جميع أعراض الانهيار العصبي. بعد رفضها للتّأقلم تمامًا مع تلك الوضعية التي لا تطاق، تدخل أدمغتها في إضراب، إن صحّ القول، فإمّا تتوقّف عن العمل كلّيًا (إذ يفقد الكلب حينها وعيه)، أو أنّها تلجأ إلى التّباطؤ والتّخريب (فيتصرّف الكلب بشكلٍ غير واقعي، أو يُظهِر نوعًا من الأعراض الجسدية التي نسمّيها عند الإنسان: الهستيريا). بعض الحيوانات أكثرُ مقاومةً للضّغط من غيرها. تنهار الكلاب التي تتمتّع ببنيةٍ



سمّاها «بالبنية الانفعالية القوية» بسرعةٍ أكبر من الكلاب ذات الطّبع «الحيوي» (وذلك كمصطلح، يعني عكس الطّبع المتهيّج والغاضب). وبالمثل، فالكلاب التي تتمتّع ببنية «مثبطة ضعيفة» تصل إلى نهاية مقاومتها أسرَع من نظيراتها «الهادئة التي لا تضطرب». لكن، يجب الإقرارُ بأنّ حتّى أكثر الكلاب رزانة تبقى عاجزةً عن المقاومة إلى أجلٍ غير مسمّى؛ فلو كان الضّغط الذي تتعرّض له شديدًا ومطوّلا بما يكفي، سينتهي بها الأمر لا محالة بالانهيار بأحقر طريقة وأكملها، مثلها مثل أيّ أضعف الكلاب من فصيلتها.

تمَّ تأكيد الاكتشافات التي توصّل إليها «بافلوف» وإثباتها من خلال أكثر الطّرق إثارةً للقلق، وذلك على نطاق واسع جدًّا خلالَ الحربين العالميّتين. كنتيجة لتجربة كارثية وحيدة، أو لسلسلةٍ من الصّدمات التي تكون أقلّ فظاعة لكن متكرّرة باستمرار، يصيب الجنودَ عددٌ من الأعراض النّفسو-الجسدية المعيقة، كفقدان الوعي المؤقت، الانفعال الشّديد، الخمول، العمى أو الشّلل الوظيفيين، ردّ فعل غير متناسق تمامًا للتّجاوب مع الأحداث، انقلابات غريبة وتحوّر تامّ لأنماطٍ سلوكية متأصّلة - ظهرت كلّ الأعراض التي لاحظها «بافلوف» عند كلاب تجاربه من جديد بين ضحايا ما عُرِف خلال الحرب العالمية الأولى بـ «صدمة القذيفة»، وخلال الثّانية بـ «إرهاق المعارك». لكلّ رجل، مثلما هو الحال بالنّسبة لكلّ كلب، حدوده الفردية من القدرة على التّحمل. يبلغ معظم الرّجال الحدَّ الأقصى لما يمكنهم تحمّله بعد حوالي ثلاثين يومًا من التّعرّض للإجهاد المستمرّ في ظروف القتال الحديث. أمّا الأكثر حساسية

عـن المتوسّـط، فيفشـلون في غضـون خمسـة عـشر يومًـا فقـط؛ فيـما يمكـن للأشـدّ بأسًـا وأقدرهـم عـلى التّحمّـل عـن المتوسّـط المقاومـة لفـترة قـد تصـل الخمسـة والأربعـين أو حتـى الخمسـين يومًـا. أقويـاء كانـوا أم ضعفـاء، سـينتهي الأمـر بالجميـع بالانهيـار نهايـة المطـاف عـلى المـدى الطويـل. والأمـر يتـعلّـق بجميـع مـن هـم أشـخاصٌ أصحّـاء في البـدء. ذلـك أنّ، وتلـك مـن المفارقـات الغريبـة، الوحيديـن القادريـن عـلى الصّمـود إلى أجـل غـير مسـمى تحـت وطـأة الحـرب الحديثـة هـم المـرضى النّفسـيون المصابـون بالعُصـاب. وبذلـك فالجنـون عـلى الصّعيـد الفـردي مُحصِّـنٌ ضـدّ عواقـب الإصابـة بالجنـون الجماعـي.

عُرِفـت حقيقـةُ أنّ لـكلّ فـردٍ نقطـةُ انهيـارٍ خاصّـة بـه، وكان ذلـك للأسـف بطريقـة لا تمـتّ للعلـم بصلـة، وتـمّ اسـتغلالها منـذ أزمنـة سـحيقة. في بعـض الحـالات، كانـت وحشـيةُ الإنسـان المروّعـة في تصرّفـه مـع مثيلـه الإنسـان مسـتوحاة مـن حـبّ القسـوة مـن أجـل مـا تثيره هـذه الأخـيرة مـن مشـاعر بداخلـه، ومـن أجـل الانجـذاب الرّهيـب نحوهـا. مـع ذلـك، وفي كثـير مـن الأحيـان، تـمّ التّبريـر للسّـادية المجـرّدة بالغايـات النّفعيـة، أو بالأسـباب اللّاهوتيـة، أو لأسـباب تخـصّ شـؤون الدّولـة. مـارس رجـال القانـون التّعذيـب الجسـدي وأشـكالًا أخـرى مـن الضّغـط مـن أجل اسـتنطاق الشّـهود المتردّديـن وفـكّ ربـاط ألسـنتهم؛ كـما مارسـه رجـال الدّيـن لمعاقبـة المظلّلـين وحثّهـم عـلى تغيـير آرائهـم؛ أيضًـا مارسـته الشّرطـة السّريـة لانتـزاع اعترافـات مـن الأشـخاص المشـتبه في معاداتهـم للحكومـة. تحـت حكـم هتلـر، استُخدِم التّعذيـب متبوعًـا بالإبـادة الجماعيـة، ضـدّ هـؤلاء المهرطقـين البيولوجيـين، ألا وهـم اليهـود.

بالنّسبة لشاب نازي، كان التّجنيد الإجباري في معسكرات الإبادة (على حدّ تعبير «هيملر») «أفضلَ تلقين عقيدةٍ عن الكائنات الدُّنيا والأعراق الأدنى مرتبةً». وبالنّظر لحدّة معاداة السّامية التي بلغت درجة الهوس، التي اكتسبها هتلر في فترة شبابه وقد ترعرع في أحياء «فيينا» الفقيرة، كان إحياءُ الأساليب التي استخدمها المكتب المقدّس أثناء حقبة محاكم التّفتيش ضدّ الزّنادقة والسّحرة أمرًا ضروريًا لا مفرّ منه. لكن الأمر بدا كمفارقة تاريخية بشعة وفظّة في ضوء النّتائج التي توصّل إليها «بافلوف»، والمعرفة التي اكتسبها الأطباء النّفسيون في علاج العُصاب النّاتج عن خوض الحرب. إذ يُمكِن إحدَاثُ ضغوطات تكفي للتّسبّب بانهيار دماغي (عصبي) كامل من خلال أساليب، رغم كونها مُجرَّدةً من الإنسانية بشكل بغيض، إلّا أنها تبقى بعيدةً تماما عن مستوى التّعذيب الجسدي ولا تبلغه.

مهما كانت طبيعة الذي حدث في الأيّام الأولى، فمن المؤكّد الآن أنّ التّعذيب لم يعد مستعملًا بشكل واسع النّطاق من قِبَل الشّرطة الشّيوعية. فهي لم تعد تستمدّ إلهامها من أساليب محقّقي المحارق الإسبانية، ولا من رجال SS (قوات الأمن الخاصّة النّازية)، بل من عالِم الوظائف الحيوية وحيوانات مختبره المكيّفة منهجيًا. بالنّسبة للدّيكتاتور ورجال شرطته، كان للنّتائج التي توصّل إليها «بافلوف» آثارًا وعواقب عملية بالغة الأهمّية. فإذا كان من الممكن جعلُ الجهاز العصبي المركزي عند الكلاب ينهار، فلا بدّ إذن أنّ الأمر ينطبق أيضًا على الجهاز العصبي المركزي للسّجناء السّياسيين. الأمر ببساطة مسألةُ تطبيق المقدار

المناسب من الضّغط، للمدّة الزّمنية المناسبة. مع نهاية العلاج، يكون السّجين إمّا في حالةٍ من العُصاب أو الهستيريا، ويصبح مستعدًّا للاعتراف بكلّ ما أراد له آسره أن يعترف به.

لكنّ الاعتراف وحده لا يكفي. فلا فائدة تُرجى من مريضٍ يائس مصابٍ بالعُصاب. ما يحتاجه الدكتاتور الذّكي والعملي فعلًا ليس مريضًا يوضَع في مؤسّسة للمختلّين عقليا، ولا ضحيّة يطلق الرّصاص عليها، بل شخصًا يكون فكره قد تغيّر بالكامل واهتدى ليجنّد ويعمل لصالح القضية. وبرجوعه مرّة أخرى إلى أعمال «بافلوف»، تعلّم أنّه ومع اقترابها من نقطة الانهيار النّهائي، تصبح الكلاب أكثر قابليةً واستعدَادًا لتقبّل الإيحاء. عندما يصل الكلب أو يقارب حدًّ قدرته على التّحمل الدّماغي يصبح إذن من الممكن تثبيت أنماطٍ سلوكية جديدة بكلّ سهولة، والظّاهر أنّ هذه الأنماط السّلوكية الجديدة تتأصّل ليستحيل بعد ذلك محوها أو إلغاؤها. لا يمكن عكس التّكييف عند الحيوان الذي أُصِّلت فيه تلك السّلوكيات؛ وسيبقى ما تعلّمه تحت الضّغط جزءًا لا يتجزّأ من تكوين كيانه.

يمكن توليد الضّغوطات النّفسية بعدّة طرق. تضطرب الكلاب عندما تكون المنبّهات قويّةً بشكل غير اعتيادي؛ وعندما تمتدّ الفترة الفاصلة بين المنبّه ونوع الاستجابة المعتادة بصفة أطول من المعتاد، ليُترَك حينها الحيوان في حالةٍ من التّرقب؛ وعندما يتمّ إرباك الدّماغ بواسطة منبّهات تتعارض مع ما تعلّم الكلب توقّعه؛ أو عندما لا يكون للمنبّهات أيّ معنى ضمن الإطار المرجعي المحدّد الذي تمّ تلقينه للكلب الضّحية في السّابق. وأبعد من هذا، فقد وُجِد أنّه وبخلقٍ متعمَّد لمشاعر الخوف

أو الغضب أو القلق، تزيد قابلية الكلب للإيحاء بشكلٍ ملحوظ. وإذا ما حوفظ على تلك المشاعر عند مستوى عالٍ من التوتّر لما يكفي من الوقت، فالدّماغ يدخل حينها في «إضراب». وعند حدوث ذلك، يصبح بالإمكان تثبيت أنماط سلوكية جديدة مهما كانت بسهولة بالغة.

من بين الضّغوطات الجسدية التي تزيد من قابلية الكلب للإيحاء، الإرهاق والتّنكيل، إضافة إلى جميع أنواع الأمراض العضوية.

بالنّسبة للدّيكتاتور المستقبلي، لهذه النّتائج آثارٌ عملية في غاية الأهمية. فهي على سبيل المثال تثبت أنّ هتلر كان محقًّا تمامًا في حقيقة أنّ تنظيم التّجمهر أثناء اللّيل أكثرُ فاعليةً بأشواط من التّجمهر أثناءَ فترات النّهار. كتب قائلًا: «أثناء النّهار، تثور قوّة الإرادة عند الإنسان لأقصى درجة ضدّ أيّ محاولة لإجباره على الخضوع لإرادة أو رأي أيّ شخصٍ آخر. أمّا في اللّيل، فهو يخضع بسهولة أكبر للقوّة المُسيطِرة لإرادةٍ أقوى».

كان «بافلوف» سيتّفق معه على هذه النّقطة؛ فالشّعور بالتّعب يزيد من قابلية الخضوع للإيحاء. (لهذا السّبب، من بين أسباب أخرى، يفضّل مروّجو الحملات الإشهارية التّجارية البرامجَ التّليفزيونية المسائية والليلية، وهم على كامل استعداد لدعم خيارهم هذا بدفع أموال طائلة).

كما يعدّ المرضُ أكثرَ فاعلية من الإرهاق بصفته محفّزًا لقابلية الخضوع للإيحاء. في الماضي، كانت غرف المرضى مسارحًا لعدد لا يحصى من مشاهد الهداية والوعظ والتّوبة الدّينية.

ستوضع جميع المستشفيات تحت تصرّف ديكتاتور المستقبل المدرَّب عِلميًا، وستكون موصولةً بأسلاك لنقل الصّوت، ومجهزّة بسمّاعات تحت وسائد المرضى. وستذاع خطابات الإقناع الجاهزة على مدار السّاعة، كما سيزور المرضى الأكثرَ أهمية منقذو النّفوس السّياسيين، ومغيّرو العقول، تمامًا كما كان يزورهم أسلافهم من قساوسة وراهبات وعلمانيين أتقياء في الماضي.

حقيقة كون المشاعر السّلبية القوية تزيد قابلية التّأثر والخضوع للإيحاء، وبالتالي تسهّل التّغيير في الآراء، هي حقيقةٌ لوحِظت لعصورٍ قبلَ تجارب «بافلوف». كما أشار إليه الدكتور «ويليام سارجانت» في كتابه المنير «مَعْرَكَةٌ مِنْ أَجْلِ العَقْل»، كان النّجاح السّاحق الذي حقّقه «جون ويسلي» كواعظ وداعية مبنيًا على فهمٍ بديهي لطريقة عمل الجهاز العصبي المركزي. فهو يستهلّ خطبته بوصفٍ دقيق وطويل ومفصّل للعذابات التي كانت ستكون مصير مستمعيه الأبدي ما لم يهتدوا إلى الطّريق الصّواب. عندها، وعندما يوصِل الرّعبُ والشّعورُ القاتل بالذّنب جمهورَه إلى حافّة الانهيار الدّماغي الكامل، أو أحيانًا يتجاوزها، كان يغيّر نبرته ويَعِدُ كلّ من آمن وتاب بالخلاص. بفضل هذا النّوع من الوعظ، حوّل «ويسلي» اعتقاد آلاف الرّجال والنّساء والأطفال. فقد أدّى الخوف الشّديد والمطوّل إلى انهيارهم، وخلق حالةً من القابلية الكبيرة للخضوع للإيحاء. كان بإمكانهم في تلك الحالة قبول جميع تأكيدات الواعظ اللّاهوتية دونَ أدنى أثر للتّشكيك. ويتمّ بعد ذلك إرجاعهم لحالتهم بكلماتٍ مواسية ولطيفة، ليخرجوا من تجربتهم تلكَ بأنماطٍ سلوكية جديدة

تكون في المجمل أفضل من الأنماط السّابقة، والتي تكون بتلك الطّريقة قد أُصِّلت فيهم بطريقةٍ لا يمكن محوها بعد ذلك من أذهانهم ولا أنظمتهم العصبية.

تعتمد فعالية البروباجاندا السّياسية والدّينية على الأساليب المستخدَمة، لا على جوهر المذاهب التي يتمّ تلقينها. سواءٌ كانت تلك المذاهب صحيحة أم خاطئة، مفيدةً أم ضارّة - فالأمر سواء. لو تمّ التّلقين على الطّريقة الصّحيحة، وفي المرحلة المناسبة من الإرهاق العصبي، فإنّه ينجح لا محالة. في ظلّ ظروف ملائمة، يمكن تقريبًا تحويلُ أيٍّ كانَ عمليًا ليؤمن بأيّ معتقدٍ كان.

بحوزتنا الآن وصفٌ مفصّل للأساليب المستخدمة من قِبل الشّرطة الشّيوعية في التّعامل مع السّجناء السّياسيين. منذ اللّحظة التي يُعتقَل فيها، يُعرَّض السّجين الضّحية بشكلٍ ممنهجٍ لعديد الضّغوطات الجسدية منها والنّفسية. يُقدَّم له الطّعام بشكل سيّء، يوضَع في وضعية جدّ مزعجة، ولا يسمح له بالنّوم لأكثر من بضع ساعات كلّ ليلة. وطوال الوقت، يتمّ الإبقاء عليه في حالةٍ من التّرقب وانعدام اليقين، حالة من التّخوف الشّديد. يومًا بعد الآخر- أو بالأحرى ليلةً تلو الأخرى، كون رجال الشّرطة البافلوفيين قد فهموا قيمة التّعب في عملهم، باعتباره عاملًا مضاعفًا للقابلية للإيحاء - يتم استجوابه، وغالبًا ما يستغرق ذلك الاستنطاق عدّة ساعات متتالية، من قبل محقّقين يبذلون قصارى جهدهم لتخويفه وإرباكه وإذهاله وتدويخه. بعد مرور بضعة أسابيع أو أشهر من هذه المعاملة، يدخل دماغه في إضراب، ويعترف بكلّ ما يريد منه معتقِلوه

الاعـتراف بـه. بعدهـا، وإن وجـب تحويـل معتقـده بـدلاً مـن إعدامـه رميًـا بالرّصـاص، تُمنَـح لـه راحـة الأمـل. مـا عليـه إلّا أن يتقبّـل الإيمـان الحقيقـيّ، وبإمكانـه أن يُخلّـص ساعتها - وطبعـا لـن يُخلّـصَ في الحيـاة الغيبيـة الأخـرى (لأنّـه لا وجـودَ للحيـاة الأخـرى رسـميا)، بـل في الحيـاة الحاليـة.

استُخدِمت أسـاليبٌ مماثلـة، لكـن أقـلّ تطرّفًـا، خـلال الحـرب الكوريـة عـلى السّـجناء العسـكريين. وأخضِـع الأسرى الغربيـون الشّـباب في المعسـكرات الصّينيـة بشـكلٍ منهجـي للضّغوطـات. وهكـذا، وبسـبب أبسـط انتهـاكات للقواعـد، كان يتـمّ اسـتدعاء المخالفـين إلى مكتـب القائـد ليسـتجوبوا، ثـمّ ضربهـم وتعنيفهـم وإهانتهـم في العلـن. ليتـمّ بعدهـا إعـادة العمليـة مـرارًا وتكـرارًا مـا هـمَّ في أيّ سـاعة مـن النّهـار أو اللّيـل. ولّـدت هـذه المضايقـة المسـتمرّة عنـد ضحاياهـا شـعوراً بالجنـون والضّيـاع والقلـق المزمـن. وبغـرض زيـادة شـعورهم بالذّنـب، أُجـبِر السّـجناء عـلى كتابـة وإعـادة كتابـة تقاريـر عـن سـيرتهم الذّاتيـة تتضمّـن خطاياهـم السّـابقة، وذلـك بذكـر أكـثر التّفاصيـل حميميـةً وإحراجًـا. بعـد اعترافهـم بخطاياهـم، يطُلَـب منهـم الاعـتراف بخطايـا رفقائهـم. الهـدف مـن ذلـك هـو خلـق مجتمـعٍ كابـوسي داخـلَ المخيّـم، يتجسّـس ويخـبر فيـه الجميـعُ عـلى وعـن بعضهـم البعـض. وقـد أضيفـت لتلـك الضّغوطـات النّفسـية ضغوطـات جسـدية كسـوء التّغذيـة وانعـدام الرّاحـة والمـرض. تـمّ اسـتغلال هـذا الإيحـاء المُضاعَـف النّاتـج بتلـك الطّريقـة بمهـارةٍ فائقـة مـن قبـل الصّينيـين الذيـن سـكبوا في تلـك العقـول المسـتعدّة للاسـتقبال بشـكل اسـتثنائي جرعـات كبـيرة مـن الأدب المؤيّـد للشّـيوعية والمناهـض للرّأسـمالية.

وقد نجحت هذه التّقنيات البافلوفية بشكل ملفت للنّظر؛ إذ قيل لنا رسميًا أنّ واحدًا من أصل سبعة سجناء أمريكيين مذنبٌ بتعاون خطير مع السّلطات الصينية، وبأنّ واحدًا من أصل ثلاثة مذنبٌ بخيانة حقيقية مثبَتة.

لا يصحّ الافتراض أنّ هذا النّوع من المعاملة خُصِّص من قبل الشّيوعيين لأعدائهم حصريًا. فقد أُخضِع شباب العمل التّطبيقي، خلال السّنوات الأولى من النّظام الجديد، والذين تمثّلت مهمّتهم في العمل كمبشّرين شيوعيين ومنظّمين، في مدن وقرى الصّين التي لا تعدّ ولا تحصى، لمسارٍ من التّلقين تتجاوز حِدّته بكثيرٍ ما كان يخضع له أيّ سجناء حربٍ على الإطلاق. يصف «آر. أل. ووكر» في كتابه «الصِّينُ تَحْتَ الحُكْمِ الشُّيُوعِيّ» الأساليبَ التي مكّنت قادة الحزب من خلق آلاف المتعصّبين المكرّسين المتفانين من الرّجال والنّساء البسطاء الذين كان تجنيدهم ضروريًا للنّظام من أجل نشر الإنجيل الشّيوعي، ولتعزيز السّياسات الشّيوعية وتجذّرها. في ظلّ نظام التّدريب ذاك، تُشحَن المواد الخام البشرية إلى معسكراتٍ خاصّة، حيثُ يُعزَل المتدرّبون تمامًا عن أصدقائهم وعائلاتهم والعالم الخارجي بشكلٍ عام. ويجبَرون في هذه المعسكرات على القيام بعمل بدني وذهني مُرهِق، إذ لا يُترَكون بمفردهم أبدًا، يبقون دائمًا ضمن مجموعات؛ ويُشجَّعون على التّجسس على بعضهم البعض؛ كما يُطلَب منهم كتابة سِيَر ذاتية يتّهمون فيها أنفسهم؛ ليعيشوا بذلك تحت خوفٍ مستمرّ من المصير الرّهيب الذي قد ينتظرهم بسبب ما قاله عنهم المخبرون، أو ما اعترفوا به عن أنفسهم. في هذه الحالة من القابلية للخضوع للإيحاء المضاعَفة، تُقدَّم لهم دروسٌ

مكثّفة عن الماركسية النّظرية والتّطبيقية - درس قد يعني فيه الفشلُ في اجتياز الامتحانات أيَّ شيءٍ ابتداءً من الطّرد المُخزي العلني إلى العزل في معسكرٍ للعمل الجبري، أو يصل حتى إلى التّصفية الجسدية. بعد الخضوع لحوالي ستّة أشهر لهذا النّوع من المعاملة، يؤدّي الإجهاد الذهني والبدني المطوَّل إلى النّتائج التي يمكن توقّعها حسب مبادئ تجارب «بافلوف». الواحد تلو الآخر، أو في مجموعات كاملة، ينهار المتدرّبون؛ وتظهر أعراض العصاب والهستيريا. يُقْدِم بعض الضّحايا على الانتحار، ويطوّر البعض الآخر مرضًا عقليًا خطيرًا (بنسبةٍ قد تعادل كما قيل لنا، العشرين في المائة من المجموع). يخرج النّاجون منهم من قسوة عملية التّحويل بأنماطٍ سلوكية جديدة متأصّلة يستحيل محوها. وتكون عندها كلّ علاقاتهم بالماضي - مع الأصدقاء والعائلة والآداب التّقليدية والميول الدّينية - قد انقطعت بالكامل. لقد أصبحوا رجالًا جددًا، أُعيدَ خلقهم على صورة إلههم الجديد، وهم مكرّسون بشكل قطعي لخدمته.

كلّ عام، في جميع أقطار العالم الشيوعي، يخرج عشرات الآلاف من هؤلاء الشّباب المنضبطين المخلصين من مئات مراكز التّكييف السّلوكي. ونفس ما فعله اليسوعيون للكنيسة الرّومانية (للإصلاح المضاد٤)، سيفعله الآن نتاجُ التّدريب الأكثر خضوعًا للمنهجية العلمية وحتّى الأكثر قسوةً، وسيواصلُ بلا شك في فعل ذلك للأحزاب الشّيوعية في كلّ من أوروبا وآسيا وأفريقيا.

---

٤ Counter Reformation

سياسيا، يبدو أنّ «بافلوف» كان ليبراليًا من الطّراز القديم. لكن يبدو من خلال مفارقة ساخرة للقدر أنّ أبحاثه والنّظريات التي استند إليها قد ساعدت في إيجاد جيشٍ عظيم من المتعصّبين المتطرّفين المتفانين قلبًا وقالبًا، جسدًا وروحًا، منعكسًا شرطيا وجهازًا عصبيًا، مستعدّين لتدمير الليبرالية القديمة أينما وُجِدت.

غسيل الدّماغ، كما يُمارَس الآن، هو أسلوبٌ هجين، يعتمد جزئياً في فعاليته على الاستخدام المنهجي للعنف، وعلى التّلاعب النّفسي المتقَن بجزئه المكمّل. إنّه يمثّل تقليدَ رواية ١٩٨٤ في صدد تحوّله إلى تقليد رواية «عالم جديد شجاع». ستبدو دون أدنى شكّ في ظلّ دكتاتورية راسخة، مؤسَّسة، ومنظَّمة بشكل جيّد أساليبُنا شبه العنيفة الحالية في التّلاعب بدائية وسخيفةً للغاية. إذا ما تمّ تكييفه منذ الطّفولة المبكرة (وربما أيضًا سيكون قد أُخْتِير من خلال انتقاءٍ بيولوجي أسبق)، لن يحتاج الفرد العادي البسيط من الطّبقة الوسطى أو الدّنيا أبدًا إلى عملية تحويل، أو حتّى لدورة تنشيطية من أجل التّذكير بالعقيدة الحقيقية. وعلى أفراد الطّبقة العليا أن يكونوا قادرين على التّفكير بطريقةٍ جديدة استجابةً لمواقفَ جديدة؛ وبالتّالي سيكون حتمًا تدريبهم أقلّ صرامةً بكثير من التّدريب المفروض على من لا تهدف أعمالهم إلى التّفكير، بل الغاية من وجودهم هو مجرّد العمل (أي تنفيذ المهام المسندة إليهم والموت في صمت دون إحداث أيّ جلبة، بأقلّ قدر ممكن من المشاكل). سينتمي أفراد الطبقة العليا رغم ذلك إلى فصيلة بريّة - بينما ينتمي في المقابل المدرّبون والحرّاس الأوصياء، المشروطون بدورهم لكن بشكل طفيف، لفصيلة سلالة من الحيوانات

المؤنّسة تماما. ستجعلُ طبيعتهم البرية الهرطقة والتّمرّد لهم أمورًا ممكنةً. وعند حدوث هذا، سيتعيّن إمّا تصفيتهم، أو غسل أدمغتهم لإدخالهم من جديد في الطّريق السّوي. أو (كما هو الحال في «العالم الجديد الشّجاع») نفيهم إلى جزيرة ما حيثُ لن يتمكّنوا من إثارة المزيد من المتاعب، باستثناء التّسبب بالمشاكل ربّما لبعضهم البعض. يبقى التّكييف الشّامل منذ الولادة، وأساليب التّلاعب والسّيطرة الأخرى على بُعْد أجيالٍ قليلةٍ في المستقبل القريب. لكن في انتظار الوصول إلى «العالم الجديد الشجاع»، سيتعيّن على حكّامنا الاعتماد على الأساليب الانتقالية والمؤقّتة المتوفّرة حاليًا لغسيل الأدمغة.

الفصل الثّامن

الإقناع الكيميائي

لم يتواجـد في خرافتـي «العـالم الجديـد الشـجاع»، لا مـشروب ويسـكي، ولا تبـغ، لا هيرويـن غـير مـشروع، ولا كوكايـين مهرَّبـة. في ذلـك العـالم، لم يكـن النّـاس لا يدخّنـون ولا يشربـون، لا يتعاطـون ولا يحقنـون أنفسـهم. كلّـما شـعرَ أيٌّ كان بالاكتئـاب أو الانزعـاج، ابتلـع قرصًـا أو اثنـين مـن مركّـب كيميـائي يسـمّى «سـوما».

«السّـوما» الأصليـة، التـي اقتَبَسْـتُ منهـا اسـمَ هـذا الـدّواء الافـتراضي، هـي نبتـةً غـير معروفـة (احتـمال أن تكـون «أسـكليبياس أسـيدا»)، اسـتخدمها قدامـى الغـزاة الآريـين في الهنـد في أحـد أكـثر طقوسـهم الدّينيـة جلالـةً وجدّيـةً. خـلال احتفـاءٍ مهيـب، كان الكهنـة ونبـلاء البـلاط يشربـون العصـيرَ المُسْـكِر المسـتخلَص مـن سـيقان هـذه النّبتـة. يقـال لنـا في التّرانيـم الفيديـة أنّ شـاربي السّـوما مبارَكـون مـن نـواحٍ عـدّة؛ فأجسـادهم تتقـوّى، قلوبهـم تُمـلأ بالشّـجاعة والبهجـة والحماسـة، وعقولهـم تُضـاء؛ وفي تجربـةٍ فوريـة للحيـاة الأبديـة، يتحصّلـون عـلى ضـمان خلودهـم. لكـن كان للعصـير المقـدّس عيوبـه وجانبـه المظلـم. فالسّـوما عقـار خطِـر - خطـيرٌ لدرجـة أنّـه وفي بعـض الأحيـان، يمـرض حتّـى إلـه السّـماء العظيـم «إنـدرا» عندمـا يتجرّعـه. كان مـن الممكـن أن يصـل الأمـر بالبـشر العاديـين أن يموتـوا جـرّاءَ جرعـةٍ زائـدة. لكـن التّجربـة في حـدّ ذاتهـا كانـت مباركـة جـدًّا لدرجـة اعتبـار شُرْب السّـوما امتيـازًا سـاميًا. ولم يتفـوّق عـلى هـذا الامتيـاز شيء.

لم يكـن لسـوما «العـالم الجديـد الشـجاع» أيٌّ مـن عيـوب أصلهـا الهنـدي. فهـي تمنحـك بجرعـات صغـيرة شـعورًا بالسّـعادة، وبجرعـات أكـبر تجعلـك تجـرّب الـرّؤى والهـلاوس، وإذا مـا تناولـتَ ثلاثـةَ أقـراصٍ، فسـتغرقُ في غضـون بضـع دقائـق في نومٍ مُنعِـش. كلّ هـذا دون تكلفـة فسـيولوجية أو عقليـة بالمقابـل. بإمـكان سـكّان «العـالم الجديـد الشّـجاع» أخـذ إجـازة مـن مزاجهـم العكـر، أو مـن مضايقـات الحيـاة اليوميـة المألوفـة، دون أن يكـون عليهـم مقابـل ذلـك التّضحيـة بصحّتهـم أو تقليـل فعاليتهـم بشـكلٍ دائـم.

لم تكـن عـادة اسـتهلاك السّـوما في «العـالم الجديـد الشـجاع» رذيلـةً تُخفـى عـلى الصّعيـد الشّـخصي؛ بـل مؤسّسـةً سياسـيةً قائمـةً مسـتقلّة وجوهَـر الحيـاة ذاتهـا، والحرّيـة، والسّـعيَ وراء السّـعادة التـي ضمّنتهـا وثيقـةُ الإعـلان عـن الحقـوق. لكـن في الوقـت نفسـه، كان أثمـنُ امتيـازات الرّعايـا الثّابـت المضمـون هـذا، واحـدًا مـن أقـوى أدوات الحكـم في ترسـانة الديكتاتـور. التّخديـرُ المنهجـي للأفـراد لصالـح الدولـة (وكعَـرَضٍ جانبـي بطبيعـة الحـال، لمتعتهـم الخاصّـة أيضًـا) هـو أحـد الرّكائـز الأساسـية في سياسـة مُراقبـي العـالم. حصـص السّـوما اليوميـة بمثابـة ضمـان ضـدّ سـوء التكيّـف الشّـخصي والاضطـراب الاجتماعـي، وانتشـار الأفـكار التّمرديـة التخريبيـة عنـد مسـتهلكيها. قـال «كارل ماركـس» عـن الدّيـن أنّـه أفيـون الشّـعوب. أمّـا في «العـالم الجديـد الشـجاع»، فقـد انعكسـت الآيـة. إذ أصبـح الأفيـون، أو بالأحـرى السّـوما، ديـن الشّـعوب. ومثل الدّيـن، تميّـز العقـار بالقـدرة عـلى المواسـاة والتّعويـض، يسـتحضر رؤًى مـن عـالمٍ آخـرَ، رؤًى أفضـل، كـما يقـدّم الأمـل، يقـوّي الإيمـان، ويعـزّز الإحسـان . كتـب شـاعرٌ عـن الجعـة أنّهـا:

... تُنجز أكثرَ ممّا يفعل «ميلتون»

لتبرير طرائق الرّب للإنسان.

لكن دعونا نتذكّر أنّها لو قورنت مع السّوما، فالجعة هي من نوع تلك المخدّرات التي لا يمكن الوثوق فيها، وأكثرها فظاظة. أمّا فيما يتعلّق بمسألة تبرير طرائق الرّب للإنسان، فالسّوما هي بالنّسبة للكحول، ما هو عليه الكحول بالنّسبة لحُجَج «ميلتون» اللّاهوتية.

في العام ١٩٣١، بينما كنت أكتب عن التّركيبة الخيالية التي ستصبح من خلالها الأجيالُ القادمة سعيدةً وطيّعةً في آن، كان عالِم الكيمياء الحيوية الأمريكي الشّهير، الدّكتور «إيرفين بايج» يتأهّب لمغادرة ألمانيا، حيث أمضى الثّلاثةَ أعوام السّابقة في معهد «كايسر فيهيلم»، منكبًّا على دراسة كيمياء الدّماغ. في مقالٍ حديث، كتب الدكتور «بايج» : «من الصّعب أن نفهم لم استغرقَ العلماء كلّ هذا الوقت لبدء البحث في تفاعلات أدمغتهم الكيميائية»، ثمّ يضيف: «أنا أتحدّث عن تجربة شخصية مريرة. عندما عدت إلى الدّيار سنة ١٩٣١ ... لم أستطع الحصولَ على وظيفة في هذا المجال (مجال كيمياء الدّماغ) أو حتّى إثارةَ الاهتمام به». اليوم، بعد مرور سبعة وعشرين عامًا، تحوّل انعدام الاهتمام السّائد سنة ١٩٣١ إلى موجة مدّ وجزرٍ من البحوث في مجال الكيمياء الحيوية، وعلم الأدوية ذات التّأثير العقلي. تُدرَس الآن الإنزيماتُ المنظِّمة لعمل الدّماغ. وداخل الجسم البشري، تمّ عزل مواد كيميائية كانت مجهولة حتّى الآن مثل الأدرينوكروم والسّيروتونين (موادٌّ شارك الدّكتور

«بايـج» في اكتشـافها)، ويتـمّ البحـث الآن في آثارهـا بعيـدة المـدى عـلى وظائفنـا العقليـة والبدنيـة. وفي الوقـت نفسـه، يتـمّ تصنيـع عقاقـير جديـدة - عقاقـير تعـزّز أو تصحّـح أو تتداخـل متفاعلـةً مـع تأثـير مختلـف المـوادّ الكيميائيـة التـي يـؤدّي مـن خلالهـا الجهـازُ العصبـي معجزاتـه اليوميـة والسّـاعية، باعتبـاره المتحكّـم في الجسـم وأداة الوعـي ووسـيطه. مـن وجهـة نظرنـا الحاليـة، مـا هـو فعـلًا مثـيرٌ للاهتـمام بخصـوص هـذه الأدويـة الجديـدة هـي قدرتهـا عـلى تغيـير كيميـاء الدّمـاغ والحالـة الذّهنيـة مؤقّتًـا، دونَ إلحاقهـا لأيّ ضررٍ دائـم بالجسـد ككلّ. باحترامهـا لسـلامة الجسـد، هـي بذلـك أدويـة تشـبه السّـوما – وتختلـف تمامًـا عـن الأدويـة السّـابقة التـي تعبـث بالعقـل وتغـيّره. الأفيـون خـير مثـال عـلى المهدّئـات المألوفة؛ لكنّـه مخـدّر خطـير، صنـعَ المدمنـين منـذ العـصر الحجـري إلى يومنـا هـذا ولا يـزال، كـما هـو مسـتمرّ في تدمـير الصّحـة. والـشّيء نفسـه ينطبـق عـلى صانـع النّشـوة الكلاسـيكي، أقصـد بذلـك الكحـول – العقـار الـذي «يُبهـج قلـبَ الإنسـان» حسـب كلـمات المُرتّـل. لكـن لسـوء الحـظ، لا «يبهـج» الكحـول قلـبَ الإنسـان فحسـب؛ هـو أيضًـا عندمـا يؤخَـذ في جرعـات مفرطـة يسـبّب المـرض والإدمـان، كـما كان مصـدرًا رئيسـيًا، عـلى مـدى الثّمانيـة أو العـشرة آلاف سـنة الماضيـة، للجريمـة، والتّعاسـة الأسريـة، إضافـةً إلى الانحـلال الأخلاقي والحـوادث التـي كان بالإمـكان تجنّبهـا.

الشّـاي والقهـوة والماتيـه، مـن بـين المنشّـطات الكلاسـيكية، تـكاد تكـون والشّـكر للـرّب مـوادًا غـير مسـبّبة للـضّرر بالمـرّة. لكنّهـا في الوقـت نفسـه منبّهـات جـدُّ ضعيفـة. وعـلى عكـس تلـك الأقـداح التـي «تُبهـج ولا تُسـكِر»، تُعَـدُّ الكوكايـين مخـدّرًا شـديدَ الفعاليـة

والخطـورة. ويدفـع مـن يسـتعملونها ثمَنَ نشـوتهم، وإحساسـهم بقـوّة جسـدية وعقليـة لا حـدود لهـا، نوبـاتٍ مـن الاكتئـاب المـؤلم، وأعراضًـا جسـدية رهيبـةً مثـل إحساسـهم بـأنّ الآلاف مـن الحـشرات الزّاحفـة تسـكن أجسـادهم، وأوهامًـا وهذيانًـا قـد يـؤدّي بهـم لارتـكاب الجرائـم. كـما يوجـد منشّـط آخـرٌ أحـدث اكتشـافًا، وهـو الأمفيتامـين، المعـروف باسـمه التّجـاري الـ «بنزيدريـن». تعمـل الأمفيتامـين بشـكل فعّـال للغايـة - لكـنّ ذلـك يكـون، لـو أُسيء اسـتخدامها، عـلى حسـاب الصّحـة العقليـة والبدنيـة. أُفيـدَ بـأنّ تعـداد المدمنـين عـلى الأمفيتامـين قـد بلـغ الآن حـوالي المليـون مدمـن في اليابـان وحدهـا.

مـن بـين العقاقـير المسـبّبة للهلوسـات والـرّؤى، الأكـثرُ شـهرةً هـو «البايـوتي»، المتـداول في المكسـيك والجنـوب الغـربي الأمريـكي، وقنّـب السّـاتيفا، المستهلَك في جميـع أرجـاء المعمـورةَ تحـتَ عديـد الأسـماء كالحشـيش، البانـج، الكيـف والماريخوانـا. وفقًـا لأفضـل الأدلّـة الطّبيـة والأنثروبولوجيـة، يعتـبر «البايـوتي» أقـلّ ضررًا بكثـير مـن الخمـور والويسـكي الـذي يصنّعـه الرّجـل الأبيـض. وهـو يسـمح لمـن يسـتخدمه مـن الهنـود في طقوسـهم الدينيـة بدخـول الجنّـة، والشّـعور بالوحـدة والتّكامـل مـع مجتمعهـم في جـوٍّ مفعـم بالحب، دون أن يجعلهـم يدفعـون ثمـن ذلـك الامتيـاز أيَّ شيءٍ أسـوأَ مـن اضطرارهـم لمضـغ شيءٍ مقـرف، ثـمّ الشّـعور بعـده بالغثيـان إلى حـدّ مـا لمـا يقـارب السَّـاعة أو السّـاعتين. أمّـا قنّـب السـاتيفا، فهـو عقـارٌ أكـثر ضررًا بقليـل - لكنّـه ليـس بذلـك الضّرر الـذي يريدنـا مروّجـو الدّعايـات تصديقـه. توصّلـت اللّجنـة الطّبيـة المعيّنـة مـن قِبـل حاكـم نيويـورك عـام ١٩٤٤ للتّحقيـق في مشـكلة الماريخوانـا،

وذلـك بعـد بحـثٍ دقيـق، إلى النّتيجـة التـي مفادهـا أنّ قنـب السّـاتيفا لا يمثّـل تهديـدًا خطـيراً للمجتمـع، ولا حتّـى عـلى مـن يتعاطونـه. هـو عـلى الأكـثر مصـدرٌ للإزعـاج.

ننتقـل الآن مـن المؤثّـرات العقليـة الكلاسـيكية إلى أحـدث منتجـات البحـوث في مجـال أدويـة طـب النّفـس. ومـن بـين هـذه المهدّئـات الجديـدة، ثلاثـةٌ هـي الأشـهر، ريسـيربين، كلوربرومازيـن والميبروبامـات. عنـد وصفهـما لمـرضى مصابـين بأنـواع معيّنـة مـن الذُّهـان، أثبـت الأوّلان فعاليـةً كبـيرة، وليـس ذلـك في الشّـفاء الـكلّي مـن الأمـراض العقليـة، بـل عـلى الأقـلّ في تثبيـطٍ وإسـكانٍ مؤقّـت لأعراضهـا الأكـثر إزعاجًـا. أمّـا الميبروبامـات، والمعـروف أيضـا باسـم «ميلتـاون»، فيُحـدِث تأثـيرات مماثلـةٍ عنـد مـن يعانـون مـن مختلـف أشـكال العُصـاب. مـن بـين هـذه الأدويـة، لا يوجـد أيُّ دواءٍ غـير ضـارٍّ تمامًـا؛ لكـنّ تكلفتهـا إذا مـا نُظِـر إليهـا مـن جانـب تأثيرهـا عـلى الصّحـة البدنيـة والكفـاءة العقليـة، فتُعتـبَر منخفضـة جـدًّا. في عـالم لا يمكـن فيـه لأيّ كان الحصـول عـلى أيّ شيء دون مقابـل، تقـدّم المهدّئـات الكثـير مقابـلَ ثمـن بخـس. لم يصـل بعـد الـ «ميلتـاون» والكلوربرومازيـن إلى مسـتوى السـوما؛ لكنّهـما يوشـكان عـلى مقاربـة ذلـك العقـار الأسـطوري في أحـد جوانبـه. فهـي توفّـر هدنـةً مؤقتـةً مـن التّوتـر العصبـي الدّائـم، وتحقّـق ذلـك دون إلحـاق ضرر عضـوي دائـم في معظـم الحـالات، ودون التّسـبب فيـما يعـدّ أكـثرَ مـن إضعـافٍ طفيـفٍ في كفـاءة الأداء الذّهنيـة والبدنيـة أثنـاءَ سريـان مفعـول الـدّواء في الجسـد. باسـتثناء اسـتعمالها كمخـدّر، مـن المحتمـل أن يُفضَّـل اسـتخدامها عـلى الباربيتـورات التـي تخفّـف مـن حـدّة الـذّكاء، وتتسـبّب عنـد

استهلاكها بجرعات كبيرة بعدد من الأعراض النّفسية الجسدية غير المرغوب فيها، والتي قد تؤدّي في نهاية المطاف إلى إدمانٍ كامل بالمعنى الحرفي للكلمة.

لقد خلق علماء الصّيدلة في مادّة LSD-٢٥، جانبًا آخرَ من عقار السّوما - فهو مُحسِّن للإدراك، ومنتجٌ للرّؤى، دون أن يكلّف تقريبًا أيّ شيءٍ من النّاحية الفسيولوجية. لدى هذا الدّواء الخارق للعادة والفعّال القدرةُ (مثل «البايوتي») على نقل النّاس إلى العالم الآخر، وذلك بجرعات صغيرة جدًّا قد تصل إلى خمسين أو حتى خمسة وعشرين جزءًا من المليون من الجرام. يكون في معظم الحالات العالمُ الآخرُ الذي يُتيح الـ LSD-٢٥ الوصول إليه عالمًا فردوسيا سماويًا؛ كما بإمكانه أيضًا أن يكون جهنّميًا أيضًا. لكن، سواءٌ كانت إيجابيةً أو سلبية، تكون التّجربة التي يخوضها مستهلك هذا الحمض تقريبًا في مجملها بالغة الأهمّية ومنيرة جدًّا. في كلّ الأحوال، تظلّ قابلية العقول للتغيير الجذري وبأدنى التّكاليف بالنّسبة للجسد أمرًا مُذهلًا.

لم تكن السّوما عقارًا مُحدِثًا للرّؤى ومهدّئًا فحسب؛ بل أيضًا (وهو الأمر المستحيل دون أدنى شك) مُحفّزًا للعقل والجسد، وخالقًا لحالة من السّعادة والنّشوة الفعّالة، وأيضًا للسّعادة السّلبية التي تلي التّحرر من القلق والتّوتر.

لا يزال المنشّط المثالي - الذي عليه أن يكون فعّالا دون أن يلحق الضّرر- بانتظار أن يتمّ اكتشافه. يبقى الأمفيتامين، كما رأينا، بعيدًا من أن يوفّي الشّروط المُرْضِية؛ فقد كان يفرض

دفع ثمنٍ باهظٍ جدًّا من مستعمله مقارنةً بما يمنح. المرشَّح الواعد ليلعب دور السّوما في جانبها الثّالث هو الإبرونيازيد، والذي يُستخدَم الآن لاقتلاع مرضى الاكتئاب من بؤسهم، إحياء المصابين بالخمول، وبعث كمية إضافية من الطّاقة النّفسية المتاحة بشكلٍ عام. أما العقار الذي يعد بأكثر من ذلك، وِفقًا لعالم أدوية متميّز من معارفي، هو مركّبٌ جديد لا يزال في المرحلة التّجريبية، يُعرف باسم «دينر». «الدّينر» كحولٌ أميني يُعتقَد أنه يزيد من إنتاج الأسيتيل كولين داخلَ الجسم، فهو يزيد بذلك من نشاط وفاعلية الجهاز العصبي. يحتاج الإنسان الذي يتناول الحبوب الجديدة إلى قدر أقلَّ من النّوم، وينتابه شعور بالمزيد من النّشاط والبهجة، ليفكّر بشكلٍ أسرَع وأذكى - وكلّ ذلك دون أن يكلّف الأمرُ الجسدَ شيئًا مهما كان على المدى القصير. يبدو الأمر رائعًا كي يكون حقيقة.

نحن نرى أنّه ورغم أنّ السّوما غير موجودة بعد (وربّما لن ترى الوجود أبدًا)، اكتُشفت بالفعل بدائلٌ تعتبر جيّدةً إلى حدّ ما لتأثيرات السّوما المختلفة. إذ تتواجد الآن مهدّئات ومهلوسات ومنشّطات رخيصةٌ من النّاحية الفسيولوجية، لا تكلّفُ الجسدَ الكثير.

الأمر جليّ وفي غاية الوضوح أنّ بإمكان الدّيكتاتور، لو هو أراد ذلك، أن يستخدم هذه العقاقير لأغراض سياسية. بإمكانه تحصين نفسه ضدّ الاضطرابات السّياسية والثّورات عن طريق تغيير تفاعلات أدمغة رعاياه الكيميائية، وجعلهم بذلك راضين عن وضعيتهم الخاضعة. بإمكانه استخدام المهدّئات لتهدئة المتحمّسين، والمنشّطات لزيادة الحماس عند اللّامبالين من

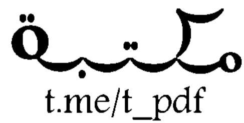
الأفـراد، أمّـا المهلوسـات فلـصرف انتبـاه البؤسـاء عـن مآسـيهم. لكنّنـا قـد نتسـاءل كيـف سـيتمكّن الديكتاتـور مـن جعـل رعايـاه يتناولـون حبوبًـا تجعلهـم يفكّـرون ويشـعرون ويتصرّفـون تمامـا كـما يرغـب أن يفعلـوا؟ مـن الواضـح أنّـه يكفـي أن توضـع تلـك الحبـوب في متناولهـم. اليـوم، الكحـول والتّبـغ متوفّـران، وينفـقُ النّـاس عـلى مصـادر النّشـوة غـير المُرضِيـة هـذه، وعـلى المنّبهـات الزّائفـة والمهدّئـات أكـثرَ مـمّا هـم مسـتعدّون لإنفاقـه عـلى تعليـم أطفالهـم. فـما بالـك بالباربيتـورات والمهدّئـات. في الولايـات المتحـدة، لا يمكـن الحصـول عـلى هـذه الأدويـة إلّا بوصفـة طبيـة. لكـنّ تهافـت الجمهـور الأمريـكي عـلى شيءٍ قـد يمكّنـه مـن تحمّـل الحيـاة في بيئـة صناعيـة حضريـة بصـورة أفضـل هـو أمـرٌ عظيـم وبالـغ الأهميـة، لدرجـة أنّ الأطبـاء الآن أصبحـوا يصفـون مختلـفَ المهدّئـات بمعـدّل ثمانيـة وأربعـين مليـون وصفـة سـنويا. إضافـةً إلى ذلـك، تُعـادُ تعبئـةُ تلـك الوصفـات في الغالـب بصـورة تلقائيـة. لكـن في الأخير، مائـة جرعـة مـن السّـعادة ليسـت كافيـة: فلنرسـل إلى الصّيدليـة لطلـب عبـوّة أخـرى - وعندمـا تنتهـي تلـك، أخـرى فأخـرى وهكـذا دواليـك... مـمّا لا شـكّ فيـه أنّـه لـو صـار بالإمـكان اقتنـاء المهدّئـات بالسّـهولة والسّـعر القليـل التـي تقتنـى بـه الآن الأسـبرين، فلـن تُسـتهلَك بالمليـارات كـما هـو الحـال في الوقـت الحـاضر، بـل بعـشرات ومئـات المليـارات. وسـيحظى منشّـطٌ رخيصٌ فعّـال بالـرّواج نفسـه تقريبًـا.

في ظـلّ دكتاتوريـةٍ مـا، سـيُطلَب مـن الصّيادلـة تغيـير نغماتهـم مـع كلّ تغيـير يطـرأ عـلى الظّـروف العامّـة. عنـد الأزمـات الوطنيـة، سـيتمثّل واجبهـم في زيـادة مبيعـات المنشّـطات. بـين الأزمـات،

قد تكون اليقظة والطّاقة الزّائدَيْن عند الرّعايا مصدرًا لإحراج الطّاغية؛ وفي أوقاتٍ كتلك، ستُحثّ الجماهير على اقتناء المهدّئات والمهلوسات. وعندما تكون تحت تأثير تلك السّوائل المهدّئة، يمكن التّأكّد من أنّ الحشود لن تشكّل مصدر إزعاج لسيّدها على الإطلاق.

من المنظور الذي تبدو عليه الأشياء الآن، قد تمنع المهدئات بعض الأفراد من أن يكونوا مصدر مشاكل ليس فقط لحكامهم، بل حتّى لأنفسهم. يُعتبَر التوتّر الكثير مرضًا، لكن كذلك انعدامُ التّوتّر الكلّي. هنالك بعض الحالات التي يتوجّب علينا فيها أن نتوتّر، والتي يكون فيه الهدوء المفرط غير مناسب البتّة (وخاصّة الهدوء الذي يُفرَضُ من الخارج بواسطة مادّة كيميائية.

في ندوةٍ عُقِدت أخيراً حول موضوع «الميبروبامات»، شاركت فيها، اقترح عالمُ كيمياء حيوية مرموق أن تهب الحكومة الأمريكية مجّانًا للشّعب السوفييتي خمسين مليار جرعة من هذا المهدّئ الشّديد الرّواج. لكنّ النّكتة احتوت جانبًا من الحقيقة في مضمونها. في مسابقةٍ بين شعبين، يُحفَّز أحدهما باستمرارٍ بالتّهديدات والوعود، ويُوجَّه على الدّوام في اتّجاه وحيد من خلال الدّعاية، بينما وفي الوقت نفسه، ليسَ انتباهُ الشّعب الآخر أقلّ تشتيتًا، وذلك بالتّعرض المستمرّ للتّلفزيون والتّهدئة من خلال تناول عقار «ميلتاون»، أيُّ المتسابقَيْن سيفوز يا ترى؟



بالإضافة إلى خصائصها المهدّئة، المهلوسة والمنشّطة، تمتّعت السّوما في خرافتي الرّوائية بقدرتها على زيادة قابلية الخضوع للإيحاء، وبالتّالي أمكن استخدامها لتعزيز تأثيرات الدّعاية الحكومية. بصورة أقلّ فعالية، وبتكلفةٍ فسيولوجية جسدية باهظة، يمكن من الآن فصاعدًا استخدامُ العديد من العقارات المتوفّرة في دستور الأدوية للغرض نفسه. على سبيل المثال، هنالك سكوبولامين، المركّب الفعّال في نبتة الهينبان، والذي يعتبر سمًّا قويًّا إذا ما أُخذ في جرعات كبيرة. هنالك أيضًا البنتوتال وأميتال الصّوديوم؛ وقد لُقِّب لسبب غريب باسم «مصل الحقيقة». تستخدم الشّرطة في العديد من البلدان البنتوتال لانتزاع الاعترافات من المجرمين المتردّدين (أو ربما اقتراح الاعترافات عليهم). إذ يخفّض البنتوتال وأميتال الصوديوم الحاجزَ بين العقل الواعي واللّاواعي، كما لديهما مساهمة كبيرة في علاج ما يسمّى «بإجهاد المعارك»، من خلال العملية المعروفة في إنجلترا باسم «العلاج بالضّغط»، وفي أمريكا باسم «التّخليق المخدّر». يشاع أنّ الشيوعيين يستخدمون أحيانًا هذه المخدرات عند إعداد سجناءَ مهمّين لمثولهم العلني أمام المحاكم.

وفي غضون ذلك، علم الأدوية والكيمياء الحيوية وعلم الأعصاب في صدد إحراز تقدّم ملحوظ، وبإمكاننا أن نتيقّن أنّه وفي غضون السّنوات القليلة المقبلة، سيتمّ اكتشاف طرق كيميائية حديثة أفضلَ لزيادة قابلية الاستجابة للإيحاء، ولتخفيض مستوى المقاومة النّفسية. وكأيّ اكتشاف، بإمكانها أن تُستعمَل للخير أو للشّر. قد تساعد مختصّ الأمراض العقلية في معركته ضدّ

المـرض العقـلي، أو قـد تسـاعد الديكتاتـور في معركتـه ضـدّ الحريـة. لكـنّ الأرجـح (بمـا أن العلـمَ محايـدٌ بصفـة مذهلـة) أنّهـا ستَسـتعبِد وتُحـرّر، تُشْـفي وفي الوقـت نفسـه تُدمِّـر.

الفصل التّاسع

إقناع اللّاواعي

في هامشٍ ألحقه بالطّبعة التي صدرت سنة ١٩١٩ من كتابه «تَفْسِيرُ الأَحْلَام»، لفت «سيغموند فرويد» الانتباه لعمل الدّكتور «بويتزل»، وهو طبيب أعصاب نمساوي نشر مؤخّرًا مقالا يصف فيه تجاربه مع التاكستوسكوب. (التاكستوسكوب عبارة عن أداة تأتي على شكلين - صندوق عرض، ينظر فيه الفردُ الخاضع للدّراسة إلى صورة تُعرَض لفترة لا تتجاوز الجزءَ الصّغير من الثّانية؛ وفانوس سحري مع مصراع عالي السّرعة، قادر على عرض صورة بسرعة فائقة على شاشة عرض). في هذه التّجارب، طلب «بوتزل» من الأشخاص أن يرسموا الصّورةَ التي رأوا عندما عُرِضت عليهم في التاكستوسكوب... ثمّ حوّل انتباهه إلى الأحلام التي حلمها أولئك الأشخاص في اللّيلة التي تلت التّجربة، وطلب منهم من جديد رسم رسومات لأجزاءَ مناسبة من تلك الأحلام. وأُثبِت بشكلٍ لا لبس فيه أنّ تفاصيل الصّورة التي لم يلاحظها الشّخص هي ما شكّلت المادّة الخام لبناء حلم الشّخص».

مع الكثير من التّعديلات والتّحسينات، أُعيدت تجارب «بوتزل» عديد المرّات، وكان آخر من أعادها الدّكتور «تشارلز فيشر» الذي ساهم بثلاث مقالات بحثية ممتازة حول موضوع الأحلام و «الإدراك اللّاواعي» في مجلّة الجمعية الأمريكية للتّحليل

النّفسي. في غضون ذلك، لم يبق علماء النّفس الأكاديميين مكتوفي الأيدي. مؤكّدةً نتائجَ «بوتزل»، أظهرت دراساتهم أنّ البشر في الواقع يرون ويسمعون أكثر ممّا يظنّون أنهم رأوا أو سمعوا بفارق كبير، وأنّ ما يرون ويسمعون دون علمهم يُسجّله العقل الباطن، وقد يؤثّر على أفكارهم الواعية، مشاعرهم وحتّى على تصرّفاتهم.

لا يبقى العلم النّظري نظريًا إلى الأبد، فعاجلاً أم آجلاً سيتحوّل إلى علمٍ تطبيقي، ليصبح أخيراً تكنولوجيا. تتحوّل النّظرية إلى ممارسة صناعية، وتصبح المعرفة قوّة، كما تتحوّل الصّيغ والتّجارب في المختبرات لتظهر على شكل قنبلة هيدروجينية. في الوضع الرّاهن، استطاعت القطعة الرّائعة من عمل «بوتزل» النّظري البحت الحفاظ على طبعها النّظري، إلى جانب قطع صغيرة جميلة أخرى من العلم في مجال الإدراك اللّاواعي، وذلك لفترة طويلة عكس التوقّعات. ثمّ فجأة، وفي أوائل خريف عام ١٩٥٧، بعد مرور أربعين عامًا بالضّبط على نشر مقال «بوتزل» الأصلي، أُعلِنَ أنّ حقيقة انتمائها للمجال النّظري البحت قد أصبحت رهن الماضي، فقد تمّ تطبيق نظريّته وأُدخِلت بذلك إلى عوالم التّكنولوجيا. أحدثَ ذلك الإعلانُ ضجّة كبيرة، ودار حوله حديث كثير، كما كُتب عنه في جميع أرجاء العالم المتحضِّر. ولا عجب من ذلك، فبالنّسبة للتّقنية الجديدة المتمثّلة في «الإسقاط اللّاشعوري» كما كانت تسمّى، ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالتّرفيه الإعلامي، ويلعب التّرفيه الإعلامي الآن في حياة البشر المتحضّرين دورًا مشابهًا للدّور الذي لعبه الدّين في العصور الوسطى. كُنِّيَ عصرنا هذا بالعديد من الألقاب - عصر القلق،

العصر الذرّي، عصر الفضاء. وقد يُكنّى أيضًا عن استحقاق أيضًا بتسميات مثل عصر إدمان التّلفاز، عصر المسلسلات، أو عصر الديسك جوكي. في عصر مثل هذا، إعلانٌ عن تطبيقٍ لعلم «بويتزل» النّظري على شكل تقنية «الإسقاط اللّاشعوري»، لا يمكنه إلّا أن يحوز على كامل الاهتمام لدى مستهلكي التّرفيه الإعلامي في العالم أجمع. وسبب ذلك هو أنّ التّقنية الحديثة موجّهة مباشرة لهم، والغرض منها هو التّلاعب بعقولهم دون إدراكهم لما يُفعَل بهم.

عن طريق مناظير التاكستوسكوب المصمَّمة خصيصًا، تومض الكلمات أو الصّور لمدّة جزءٍ من الثّانية أو أقلّ على شاشات التّلفزيون والسّينما أثناء البرنامج المعروض (لا قبله، ولا بعده). ستُركَّب عبارات «اشرَبْ كوكا كولا»، أو «دخِّن سيجارة كامل» فوق صورة عناق العشّاق في الفيلم، أو أثناء مشهد بكاء أمٍّ محطَّمة الفؤاد، ستسجّل الأعصاب البصرية للمشاهدين هذه الرّسائل السّرية، لتستجيب عقولهم اللاواعية لها؛ وفي الوقت المناسب، سيشعرون بوعيٍ تامّ بالرّغبة العارمة في شرب المشروبات الغازية أو تدخين التّبغ. وفي الوقت نفسه، سيُبعَث برسائل سريّة أخرى يكون اهتزازها إمّا شديد الانخفاض أو شديد الارتفاع بحيث لا يتسنّى للوعي التقاطها. على الصّعيد الواعي، قد ينتبه المُستمع إلى عبارةٍ مثل «عزيزي، أُحبّك»؛ ولكنّ لاشعوريًا، وتحت عتبة الوعي، ستتلقّى أذناه الحسّاستان بشكلٍ رهيب وعقله الباطن آخرَ الإعلانات التي تخصّ مزيلات العرق والمليّنات.

هل هذا النّوع من الدّعاية التجارية فعّال حقًّا؟ ظلّت الأدلّة التي قدّمتها الشّركة التجارية التي كشفت لأوّل مرّة عن تقنية «الإسقاط اللاشعوري» مُبهَمة وغير مقنِعة من وجهة نظر علمية بحتة. عند تكراره على فترات منتظمة أثناءَ عرض فيلم في قاعة من قاعات السينما، قيل أنّ الأمرَ بشراء المزيد من الفشار أدّى إلى زيادةٍ بنسبة ٥٠ في المائة في مبيعات الفشار خلال فترة الاستراحة. لكنّ تجربةً وحيدةً لا تثبت شيئًا. وإضافة إلى ذلك، حُضِّرت هذه التّجربة بالذّات بشكلٍ رديء؛ إذ لم توضَع بها ضوابط، ولم يُؤخَذ بالحسبان عديد المتغيّرات التي قد تؤثّر بلا شكّ على استهلاك جمهور الصّالة للفشار. وعلى أيٍّ، هل كانت تلك أنجع الطّرق لتطبيق معرفةٍ قضى العلماء الباحثون عديد السّنوات في اكتسابها عن «الإدراك اللّاواعي»؟ وهل من الممكن حقًّا أنّه بمجرّد عرض وميض اسم المنتَج والأمر بشرائه، سيكون ذلك قادرًا على تحطيم مقاومة الشّراء، ومن ثمّ تجنيد زبائن ومستهلكين جدد؟ من الواضح جدًا أنّ الإجابة على كلا السّؤالين ستكون بالنّفي. لكن هذا لا يعني بالطّبع، أنّه ليس للنتائج التي توصّل إليها علماء الأعصاب وعلماء النّفس أيّ أهمية تطبيقية في الواقع. لو طُبِّقت بمهارة فائقة، فقد تصبح تحفة «بويتزل» الصّغيرة الرّائعة من العلم النّظري البحت أداةً قويةً للتّلاعب بعقولٍ غير مدركة ولا تشكّ في شيء.

دعونا ننقل انتباهنا الآن من بائعي الفشار إلى أولئك الذين جرّبوا في الميدان نفسه بضجّة أقلّ وبصمت أكبر، بخيال أوسع ومناهج أفضل. في بريطانيا، والتي تُعرف فيها عملية التّلاعب بالعقول ما دون مستوى الوعي باسم «الحقن الستروبوني»،

شـدّد الباحثـون عـلى أهمّيـة خلـق الظّـروف النّفسـية المناسـبة لإنجـاح الإقنـاع اللّاواعـي. مـن المرجّـح أن يكـون الإيحـاء الـذي يتجـاوز عتبـة الوعـي فعّـالا أكـثر عندمـا يكـون المتلقّـي في حالـةٍ مـن التّنويـم المغناطيـسي الطّفيـف، أو تحـت تأثـير أدويـةٍ معيّنـة، وقـد أُضعِـفَ بفعـل المـرض أو التّجويـع، أو أيّ نـوعٍ مـن الإجهـاد البـدني أو العاطفـي. لكـن، مـا هـو صحيـحٌ وينطبـق عـلى الإيحاءات التـي تتجـاوز عتبـة الوعـي، أيضًـا صحيـحٌ وينطبـق عـلى الإيحـاءات التـي تكـون أدنى مـن تلـك العتبـة. بإيجـاز، كلّـما انخفـضَ مسـتوى المقاومـة النّفسـية للشّـخص، كلّـما زادت نجاعـة الإيحاء اللّاشـعوري. وسـيضع ديكتاتـور الغـد آلاته الهامسـة وأجهـزة العرض اللّاشـعورية في المـدارس والمستشـفيات (كـون الأطفـال والمـرضى هـم الأكـثر تقبّـلا للإيحـاء مقارنـة بالبقيّـة)، وفي جميـع الأماكـن العامّـة التـي يمكـن أن يُقـدَّم فيهـا للجمهـور تهيئـةً أوّليـة عـن طريـق خطابـات وممارسـات وشـعائر تضفـي إلى اسـتعدادية تقبّـل الإيحـاء.

ننتقـل الآن مـن الظّـروف التـي مـن المتوقّـع أن يكـون فيهـا الإيحـاءُ المـموَّه فعّـالاً، إلى الإيحـاءات بحـدّ ذاتهـا. مـا هـي المصطلحـات والصّيـغ التـي يجـب عـلى صانـع الدّعايـة اسـتعمالها لمخاطبـة عقـول ضحايـاه اللّاواعيـة؟ يبـدو أنّ كلّا مـن الأوامـر المباشرة مثـل «اشـتري الفشـار» أو «صـوِّت لصالـح جونـز»، والتّأكيـدات الصّارمـة مثـل القـول : «يقـضي معجـون الأسـنان «س» عـلى رائحـة الفـم الكريهـة»، ليسـت فعّالـة إلّا عـلى عقـولٍ هـي في الأصـل منحـازةٌ للتّصويـت لصالـح «جونـز» ولاقتنـاء الفشـار، ومدركـةٌ بالفعـل لمخاطـر روائـح الجسـم، ومدركـة لمفاهيـم وفائـدة الملكيـة العامّـة لوسـائل الإنتـاج. لكـنّ تقويـة إيمـانٍ مُتأصِّـل ليسـت كافيـة

لوحدها، فلو كان صانع البروباجاندا كفءً حقًّا، فعليه إذن أن يخلق إيمانًا جديدًا، وعليه أن يعرف كيف يجذب اللّامبالين والمتردّدين إلى كفّته، وعليه أيضًا أن يتمكّن من تليين المعادين وربّما تحويل اعتقاداتهم. لذلك فهو يعلم جيّداً أنّ عليه أن يضيف إلى التّأكيدات الإيحائية والأوامر إقناعًا مموّهًا إيحائيًا.

واحدةٌ من أكثر طرق الإقناع اللاعقلاني فاعليةً، والتي تتجاوز عتبة الوعي، هي ما يمكن تسميته بالإقناع بالتّرابط. إذ يربط صانع الدّعاية بشكل تعسّفي أو اعتباطي منتَجه أو مرشّحه أو قضيّتَه بفكرةٍ ما، بصورةٍ مَا لشخصٍ أو شيءٍ يُعتبَر ويُنظر إليه في ثقافةٍ معيّنة بالإجماع على أنّه أمر جيّد دون أدنى أثر للتّردّد. وبهذا الشّكل، في أيّ حملة ترويج، يمكن ربط الجمال الأنثوي بطريقة تعسّفية مع أيّ شيء، ابتداءً من الجرّارة الزّراعية إلى مدرّات البول؛ وفي حملة سياسية، يمكن ربط حسّ الوطنية بأيّ قضيّة كانت، من «الأبارتايد» إلى مبدأ «تضمين الآخر» وإدماجه، كما يمكن ربطه بأيّ نوع من الأشخاص، من المهاتما غاندي إلى السّيناتور «مكارثي». لاحظتُ قبل عدّة سنوات في أمريكا الوسطى مثالًا على الإقناع بالتّرابط، وهو الشّيء الذي جعلني أشعر بإعجاب رهيب بالرّجال الذين ابتكروه. الأعمال الفنّية الوحيدة المستورَدة في جبال غواتيمالا هي الروزنامات الملوّنة، توزّعها الشّركات الأجنبية التي تبيع منتجاتها للهنود عليهم بالمجّان. أظهرت الرّوزنامات الأمريكية صورًا لكلابٍ ومناظرَ طبيعية، وشابّات يافعات شبه عاريات. لكن بالنّسبة للهندي البسيط، كانت الكلاب مجرّد أشياء نفعية، والمناظر الطّبيعية هي أكثر شيء يراه في كلّ يوم من أيّام حياته، أمّا الشّقراوات

الشّبه عاريات فلم تثرن اهتمامه، أو لربّما حتّى أثرن اشمئزازه نوعًا ما. ونتيجةً لذلك، لاقت إذن الرّوزنامات الأمريكية شهرة ورواجًا أقلّ بكثير من الرّوزنامات الألمانية؛ لأنّ صُنّاع الإعلانات الألمان كانوا قد تحمّلوا عناءَ معرفة ما يُقدِّره الهنود بالفعل، ونقاطَ اهتمامهم. وأتذكّر هنا على وجه الخصوص إحدى روائع الدّعاية التّجارية. كانت روزنامة أخرجتها شركة تصنيعٍ للأسبرين. عليها، أمكن رؤية العلامة التجارية المألوفة على الزّجاجة المألوفة للأقراص البيضاء في الجزء السّفلي من الصّورة؛ وفوقها، لم تكن هنالك مشاهدُ عن مناظر ثلجية أو غابات في فصل الخريف، ولم يكن هناك كلاب من فصيلة الكوكر سبانيل، ولا فتياتٌ ممتلئات. لا - فقد ربط الألمان المخادعون مسكّنات الألم بصورةٍ زاهية الألوان، تنبض فعلًا بالحياة، تُمثّل الثّالوث الأقدس جالسًا على سحابةٍ ركامية، يحيط به كلٌّ من القديس يوسف، مريم العذراء، وعددٌ من القدّيسين، وعددٌ كبير من الملائكة. وهكذا، ضُمِنت مزايا الأسبرين الخارقة في أعماق أذهان الهنود البسيطة وشديدة التّدين، مِن قِبَل الرّب الأب والطّاقم المُضيف السّماوي بأكمله.

يبدو أنّ هذا النّوع من الإقناع بالارتباط هو من تقنيات الإسقاط المموّه اللاشعوري التي تصلح له بشكل خاص. في سلسلة من التّجارب أُجريت في جامعة نيويورك، تحت رعاية المعهد الوطني للصّحة، وُجِد أنّ بالإمكان تعديل شعور الفرد تجاه بعض الصّور التي يراها بشكلٍ واعٍ إذا ما تمّ ربطها، على مستوى لا شعوري، بصورة أخرى، أو أفضل من ذلك، إذا ما تمّ ربطها بكلمات تحمل قيمةً في مضمونها. وهكذا، وعلى مستوى

اللّاوعـي، إذا مـا اقـترن وجـهٌ خـالٍ مـن أيّ تعبـيرٍ بكلمـة «سـعيد»، فسـيبدو للملاحِـظ أنّـه يبتسـم، وأنّـه ودودٌ ومنفتـح. لكـن عندما تمّ ربـط الوجـه نفسـه، دائمًـا عـلى مسـتوى اللّاوعـي بكلمـة «غاضب»، أصبـح تعبـيره منقبضًـا، وبـدا للملاحـظ أنّـه أصبـح عدائيًـا، وغـير لطيـف. (بـدا لمجموعـة مـن الشّـابات أنّـه أصبـح أكـثر رجوليـة مـن ذي قبـل - بينـما عندمـا رُبـط بكلمـة «سـعيدة»، رأوا فيـه وجهًـا ينتمـي إلى جنسـهن الأنثـوي. أرجوكـم أيّهـا الآبـاء والأزواج، سـجّلوا هـذه الملاحظـة جيّـدًا). مـن الواضـح جـدًّا لصانـع الدّعايـة التّجاريـة والسّياسـية أنّ هـذه النّتائـج بالغـة الأهميّـة. فلـو تمكّـن مـن وضـع ضحايـاه في حالـةٍ مـن القابليـة العاليـة للإيحـاء، ولـو اسـتطاع أن يريهـم بينـما هـم عـلى تلـك الحالـة الـشّيءَ، الشّـخصَ، أو عـبرَ الرّمزيـةِ القضيّـةَ التـي عليـه ترويجهـا، ولـو اسـتطاع عـلى مسـتوى اللّاوعـي أن يربـط ذلـك الـشّيء أو الشّـخص أو الرّمـز بكلمـة أو صـورة متضمّنـة لقيـم معيّنـة، فسـيتمكّن مـن تعديـل مشـاعرهم وآرائهـم دون أن يدركـوا إطلاقًـا مـا يفعلـه بهـم. وفقًـا لمجموعـةٍ تجاريـةٍ مُغامِـرةٍ ومحدثـة في «نيـو أورلينـز»، سـيصبح مـن الممكـن باسـتخدام هـذه التّقنيـة تعزيـز القيمـة التّرفيهيـة للأفـلام والعـروض التّلفزيونيـة. يحـبّ النّـاس تجريـب المشـاعر القويّـة، ومـن ذلـك اسـتمتاعهم بالتراجيديـا والمآسي وأفـلام الإثـارة، وجرائـم الغمـوض والعـروض الرومانسـية. يثـير تمثيـل مشـهد قتـال أو عنـاق مشـاعرًا قويّـة عنـد المتفرّجـين. وقـد يثـير ذلـك مشـاعرًا أقـوى بكثـير إذا مـا رُبـط عـلى مسـتوى اللّاوعـي بالكلـمات أو الرّمـوز المناسـبة. عـلى سـبيل المثـال، في النّسـخة السّـينمائية مـن روايـة «وداعًـا للسّـلاح»٥،

٥ A Farewell to Arms: فيلم مقتبسٌ من رواية لإرنسـت همنغواي تحمل العنوان نفسـه، أُنتج سـنة 1932

يمكـن جعـل مـوت البطلـة أثنـاء المخـاض أكـثر إثـارة مـمّا هـو عليـه مـن خـلال تشـغيل وميـض لاشـعوري مـرارًا وتكـرارًا عـلى الشّاشـة أثنـاءَ المشـهد، لتمريـر كلـمات تشـاؤمية مثـل «ألم»، «دمـاء»، «مـوت». لـن يكـون مـن الممكـن رؤيـة تلـك الكلـمات على مستوى الوعـي؛ لكـنّ تأثيرهـا عـلى العقـل الباطـن اللّاواعـي سـيكون عظيـمًا جـدًّا، وقـد تُعـزِّز هـذه التأثـيرات بقـوّةٍ المشـاعرَ التـي تثيرهـا عـلى المسـتوى الواعـي، مـن خـلال التّمثيـل والحـوار. إذا أمكـن للإسـقاط الممـوّه اللّاوعـي - كـما يبـدو أكيـدًا- أن يكثّـف المشـاعر ويزيـد مـن حدّتهـا عنـد روّاد السـينما باسـتمرار، فقـد يكـون بالإمـكان إنقـاذ الصّناعـة السّـينمائية مـن الإفـلاس - هـذا إن لم يسـبقهم إلى اسـتعمال هـذه التّقنيـة منتجـو العـروض التليفزيونيـة أوّلاً.

في ضـوء مـا قيـل عـن الإقنـاع بالتّرابـط، وعـن تعزيـز المشـاعر بالإيحـاء الممـوَّه، فلْنحـاول تخيّـل مـا سـيكون عليـه الاجتـماع السّـياسي في المسـتقبل القريـب. سـيلقي المرشَّـح (في حـال مـا يـزال يتواجـد نظـامٌ فيـه مترشّـحون قائمًـا)، أو الممثِّـل المعيَّن للأوليغارشـية الحاكمـة، خطابَـه عـلى الجميـع. وفي غضـون ذلـك، سـتعزِّز آلات التاكيستوسـكوب، آلات الهمـس وأجهـزة عـرض الصّـور الباهتـة التـي لا يمكـن سـوى للعقـل الباطـن الاسـتجابةَ لهـا، مـا يقولـه مـن خـلال ربـط الرّجـل وقضيتـه بشـكلٍ منهجـي بالكلـمات الحاملـة للقيـم، والصّـور المقدّسـة التـي تسـتدعي الاحـترام، ومـن خـلال ضـخٍّ قـويٍّ لاواعٍ لكلـمات ذات دلالـة سـلبية ورمـوز بغيضـة كلّـما ذكـر في خطابـه أعـداءَ الدّولـة أو الحـزب. في الولايـات المتّحـدة، ستُعرَض عـلى المنصّـة ومضـاتٌ موجـزة لصـورة «أبراهـام لنكولـن»، ولعبـارة «الحكـم بالشّـعب». بينـما سـيُربَط المتحـدِّث في روسـيا

بالطّبع بومضات من صور «لينين»، وبكلمات «ديمقراطية الشّعب»، وبلحية الأب «ماركس» النّبوية. لكن، بما أنّ كلّ هذا لا يزال بعيدًا في المستقبل، بإمكاننا أن نبتسم ساخرين منه. الحقيقة هي أنّ الأمرَ لن يبدو مسليًّا إطلاقًا بعد عشر أو عشرين عامًا من الآن. سيصبح ما هو الآن مجرّد خيال علمي حقيقةً سياسية واقعية.

كان «بويتزل» أحدَ التّوقّعات التي أهملتُها أثناءَ كتابتي لرواية «العالم الجديد الشّجاع». لا توجد في خرافتي أدنى إشارة للإسقاط المموَّه. وهو خطأٌ بالنّسيان. خطأٌ لو كان عليّ إعادة كتابة الرّواية اليوم، فلا بدّ لي وأن أصحّحه بكلّ تأكيد من خلال تضمينه.

الفصل العاشر.

التّلقين أثناء النّوم

في أواخر خريف عام ١٩٥٧، تحوّلت «وودلاند رود كامب»، وهي مؤسّسة عقابية في مقاطعة «تولاري» بكاليفورنيا، إلى مسرح لتجربة غريبة ومثيرة للاهتمام. وُضِعَت مكبّرات صوت مصغّرة تحت وسائد مجموعة من السّجناء تطوّعوا ليكونوا حيوانات تجريب نفسية. إذ وُصِلَ كلّ واحد من مكبّرات الصّوت تحت الوسائد بفونوغراف يتواجد بمكتب حارس السّجن. طوال اللّيل، كانت تُذاع عند كلّ ساعة همسةٌ ملهِمة تُكرِّر عظةً قصيرة موضوعها «مبادئ الحياة الأخلاقية». وأمكن للسّجين عند استيقاظه في منتصف الليل، أن يسمع ذلك الصّوت اللّطيف الذي لا يزال يُمجّد الفضائل الأساسية، أو يهمس مناجيًا أفضلَ ما يوجد في مكنونات نفسه : «أنا مليءٌ بالحبّ والتّعاطف تجاه الجميع، ساعِدْني إذن أيّها الرّب».

بعد أن قَرأتُ عن التّجارب في «وودلاند رود كامب»، رجعت إلى الفصل الثّاني من رواية «العالم الجديد الشّجاع». في هذا الفصل، يشرح مدير المفرّخات والتّكييف في أوروبا الغربية لمجموعة من الطّلبة الجدد في علم التّكييف، طريقةَ عمل نظام التّعليم الأخلاقي الذي تسيطر عليه الدّولة، والمعروف في القرن السّابع الفوردي باسم «التّلقين أثناء النّوم». أخبر المدير مستمعيه أنّ أولى محاولات التّدريس أثناء النّوم كانت مضلّلة،

ولذلك باءت بالفشل. حاول المعلّمون تقديم تدريب فكري لتلامذتهم أثناء النّوم، لكنّ النّشاط الفكري والنّوم شيئان لا يتوافقان. ولم يصبح «التّلقين أثناء النّوم» ناجحًا إلّا عندما استُخدِم بغرض التّدريب الأخلاقي - بتعبير آخر، بغرض تكييف السّلوك من خلال الإيحاء اللّفظي حين تكون المقاومة النّفسية منخفضةً وفي أدنى مستوياتها. التّكييف البحت عمليةٌ فظّة تفتقر للدّقة، وليس بإمكانه زرع مسارات الأنماط السّلوكية الأكثر تعقيدًا التي تشترطها الدّولة. لهذا السّبب، توجّب استعمال الكلمات، لكن كلمات دون غاية ... «ذلك النّوع من الكلمات التي لا تتطلّب تحليلًا من أجل فهمها، والتي يمكن للعقل النّائم تشرّبها كما هي، ببالغ السّهولة. هذا هو «التّلقين أثناء النّوم» الحقيقي، «أعظم قوّة مُؤَخلِقة وصانعة للتّلاحم الاجتماعي على الإطلاق». في «العالم الجديد الشّجاع»، لم يتسبّب مواطنُ الطّبقاتِ الدّنيا أبدًا في أيّ مشاكل. فما السّبب يا ترى؟ لأنّه ومنذ اللّحظة التي استطاع فيها التّحدث وفهم ما يقال له، عُرِّض طفلُ الطّبقة الدّنيا لإيحاءات متكرّرة لا تنتهي، ليلةً تلو الأخرى، خلالَ ساعات النّعاس والنّوم العميق. ذلك أنّ تلك الإيحاءات شبيهةٌ في الحقيقة بالشّمع العازل المُغلِّف، تنهمر قطراتٌ وتتداخل في الشّيء الذي تنهمر عليه، تتغلغل لتلتصق وتتحدّ أخيرًا معه وتشكّل كتلةً واحدةً قرمزية اللّون. حتّى يصبح عقلُ الطّفل في النّهاية هو تلك الإيحاءات بعينها، ويصبح مجموع تلك الإيحاءات هي عقل الطّفل ذاته. وليس عقل الطفل وحدَه، بل عقل البالغ الذي سيصبحه أيضًا - ثمّ يظلّه طوال حياته. يتكوّن ذلك العقل الذي يحكم ويرغب ويقرّر من تلك الإيحاءات. لكنّ الإيحاءات تلك هي إيحاءاتُنا

نحـن - إيحـاءاتٌ تقترحهـا الدّولـة...»

عـلى حسـب علمـي، وإلى غايـة اليـوم، لم تسـتعمل أيّ ولايـة «التّلقـين أثنـاء النّـوم» عـدا مقاطعـة «تـولاري»، وطبيعـة إيحاءاتها للسّـجناء لا غبـار عليهـا. لـو فقـط سـنحت لنـا الفرصـة جميعًـا، وليـس فقـط لنـزلاء «وودلانـد رود كامـب»، أن نُغْمَـر بشـكلٍ فعّـال أثنـاء نومنـا بالحـبّ والتّعاطـف تجـاه الجميـع! لا، مضمـون الرّسـالة التـي ينقلهـا الهمـس الملهِـم ليـس هـو محـلَّ الاعـتراض؛ بـل مبـدأُ «التّلقـين أثنـاء النّـوم» مـن قِبَـل وكالاتٍ حكوميـة. هـل «التّلقـين أثنـاء النّـوم» هـو ذلـك النّـوع مـن الأدوات التـي يجـب أن يُسـمح باسـتخدامها مـن طـرف المسـؤولين المفوَّضـين لممارسـة السّـلطة في مجتمـع ديمقراطـي كـما يحلـو لهـم؟ وفقًـا لتقديرهـم الخـاص؟ في هـذه الحالـة بالـذّات، هـم لا يسـتخدمونه إلّا عـلى أشـخاصٍ متطوّعـين بمـلء إرادتهـم، وبنيّـة حسـنة. لكـن لا وجـود لأدنى ضمانـات عـلى أنّ النّوايـا سـتكون في حـالات أخـرى حسـنة، ولا عـلى أنّ التّلقـين سـيتمّ عـلى أسـاسٍ طوعـي. يبقـى أيُّ قانـون أو ترتيـب اجتماعـي يُمكِّـن مـن وضـع المسؤولين أمـام الإغـراء أمـرًا سيئًا. ويبقـى أمـرًا جيّـدًا كلُّ قانـون أو ترتيـب يبعدهـم عـن إغـراء إسـاءة اسـتخدام السّـلطة المفوّضـة لهـم، لمصلحتهـم الخاصـة أو لصالـح الدّولـة، أو لفـترات زمنيـة محـدودة؛ أو لصالـح منظّـمات سياسـية أو اقتصاديـة أو دينيـة مهـما كانـت. لـو كان «التّلقـين أثنـاء النّـوم» فعّـالا حقًّـا فسيشـكّل أداةً قويّـة جـدًّا بـين أيـدي أيّ شـخص في وضـعٍ يسـمح لـه بفـرض اقتراحـات عـلى جمهـورٍ أسـيرٍ. يرتكـز المجتمـع الدّيمقراطـي عـلى فرضيـة أنّ السّـلطة هـي شيءٌ غالبًـا مـا يُسـاءُ اسـتخدامه، وبالتّـالي يجـب أن يُعهَـد بهـا إلى المسـؤولين في

حدودٍ معيّنة، ولفترات زمنية محدودة. في مجتمع كهذا، يجب أن يُنظَّم استخدام «التّلقين أثناء النّوم» من قبل المسؤولين بموجب القانون - هذا انطلاقًا من افتراض أنّ «التّلقين أثناء النّوم» هو بالأساس فعلًا أداةٌ للسّلطة. لكن، هل هو فعلًا أداةٌ للسّلطة؟ هل سيعمل فعلًا بالنّجاعة التي تخيّلتُها في القرن السّابع الفوردي؟ دعونا نتمعّن في الأدّلة التي بحوزتنا الآن.

في مجلّة علم النّفس لشهر تموز (يوليو) من العام ١٩٥٥، حلّل وقيّم كلّ من «تشارلز و. سايمون»، و«ويليام هـ إيمونس» أهمَّ عشرة دراسات في المجال؛ والتي اهتمّت جميعها بموضوع الذّاكرة. هل يساعد التّدريس أثناء النّوم التلميذَ في مهمّته في التّعلم ميكانيكيًا عن ظهر قلب؟ وإلى أيّ حدّ يبقى ما يُهمَس به في أذن النّائم راسخًا، وما مدى ما يتذكّره عند استيقاظه في اليوم الموالي؟ يجيب «سايمون» و«إيمونس» كما يلي: «تمّت مراجعة عشرة دراسات تخصّ التّعلّم أثناء النّوم. وقد تمّ الاستدلال بالعديد منها دون أيّ نقدٍ من قِبَل شركات تجارية أو في مجلّات رائجة وصحف، كأدلّةٍ لدعم قابلية التّعلم أثناء النّوم للتّطبيق وإمكانيته. وقد أُجري تحليلٌ نقدي لمنهجها التّجريبي، وللإحصاءات والمنهجية ومعايير النّوم. أظهرت كلّ الدّراسات نقاطَ ضعف في مجالٍ أو أكثرَ من المجالات السّابق ذكرها. وهي لا توضّح بشكلٍ قاطع أنّ التعلم أثناء النّوم يحدث بالفعل. لكن يبدو أنّ نوعًا من التّعلم يحدث بالفعل في حالةٍ خاصّة من اليقظة التي لا يتذكّر بعدها الأشخاص ما إذا كانوا حينها مستيقظين بالفعل أم لا. قد يكون لهذا أهميّة تطبيقية بالغة لو نظرنا لاقتصاد زمن الدّراسة، لكن لا يمكن

تفسيره على أنّه تعلّمٌ فعلي أثناء النّوم... يكمن المشكل جزئيًا في الارتباك الواقع بسبب غياب تعريفٍ دقيق للنّوم يحدّد الدّراسة».

وخلال ذلك، تظلّ الحقيقة أنّه في الجيش الأمريكي، وخلال الحرب العالمية الثّانية (وحتّى تجريبيًا أثناء الأولى)، استُكمِلت دروس النّهار في مواد شفرة مورس واللّغات الأجنبية بتعليمات ملقَّنة أثناءَ النّوم - وقد أتى ذلك على ما يبدو بنتائج مُرْضية. منذ انتهاء الحرب العالمية الثّانية، باعت العديد من الشّركات في الولايات المتّحدة وأماكن مختلفة أخرى أعدادًا كبيرة من الوسائد المزوّدة بمكبّرات الصّوت، وكذا الفونوغرافات المبرمجة ومسجّلات الأشرطة، كي يستخدمها الممثّلون الرّاغبون في حفظ أدوارهم بسرعة، ورجال السّياسة والدّعاة الذين يرغبون في إيهام المتلقّين بأنّهم خطباء بلغاء، والطّلاب أثناء استعداداتهم للامتحانات، وأخيرًا، وكانت تلك الشّريحة التي أدرّت أعلى الأرباح والمبيعات على تلك الشّركات، الأشخاص غير الرّاضين عن أنفسهم، والرّاغبين في التّحوّل إلى شيء آخر عن طريق إيحاءات، أو إيحاءات ذاتية. يمكن بسهولة تسجيل الإيحاءات الذّاتية على أشرطة، وإعادة الاستماع إليها مرارًا وتكرارًا بالنّهار وأثناء النوم. كما يمكن اقتناء الإيحاءات من الخارج في شكل تسجيلات تحتوي على مختلف الرّسائل المساعدة في التّطوير. في السّوق، تباع تسجيلات من أجل التّخفيف من حدّة التّوتر، وأخرى من أجل الاسترخاء العميق، تسجيلات لتعزيز الثّقة بالنّفس (والتي يستخدمها الباعة والوكلاء التّجاريون كثيرًا)، كما توجد تسجيلات هدفها زيادة سحر الفرد و جاذبيته. من

بين التّسجيلات الأعلى مبيعًا هي تسجيلات تحقيق الانسجام الجنسي، والتّسجيلات الموجّهة للرّاغبين في إنقاص الوزن. جُمَلُ إيحاءاتها من نوع: «لا أشعر بشيء تجاه الشوكولاطة، لا أبالي بإغراء البطاطس، وليس للكعك أيّ تأثير عليّ إطلاقًا». هنالك تسجيلات لتحسين الحالة الصّحية، وحتّى تسجيلات تساعد على كسب المزيد من المال. واللّافت للنّظر هو أنّه ووِفقًا لشهادات لم تُطلَب بالأساس أرسلها بعض مقتني تلك التّسجيلات الممتنّين، فالعديد من الأشخاص يكسبون فعلًا المزيد من المال بعد الاستماع إلى اقتراحات التّلقين أثناء النّوم، وتفقد العديد من السّيدات البدينات وزنهن، كما يحقّق العديد من الأزواج الذين كانوا على وشك الطّلاق الانسجامَ الجنسي، ليعيشوا بعدها في سعادة دائمة إلى الأبد.

في هذا السّياق، مقالٌ بقلم «ثيودور إكس باربر»، بعنوان «النّوم والتّنويم المغناطيسي»، والذي نُشِر في مجلّة «التّنويم المغناطيسي الإكلينيكي والتّجريبي» لشهر أكتوبر ١٩٥٦، هو أكثر إفادةً وإيضاحًا. يشير السّيد «باربر» إلى وجود فارقٍ كبير بين النّوم الخفيف والنّوم العميق. أثناء النّوم العميق، لا يسجّل مخطط الدّماغ الكهربائي أيّ موجات من نوع «ألفا»؛ بينما تظهر هذه الأخيرة أثناءَ النّوم الخفيف. ويكون هكذا النّومُ الخفيف أقربَ إلى حالة اليقظة والتّنويم (واللّتين تتواجد فيهما موجات «ألفا») من النّوم العميق. ستؤدّي ضجّةٌ كبيرةٌ إلى إيقاظ الشّخص الذي يكون في حالة نومٍ عميق؛ بينما لن يثيرَه تأثيرٌ أقلّ حدّة، بل سيؤدّي إلى ظهور موجات ألفا من جديد؛ فيكون بذلك النّوم العميق قد أفسح المجال للنّوم الخفيف.

يكـون الشّـخص في حالـة النّـوم العميـق مقاوِمًـا لـكلّ شـكل مـن أشـكال الإيحـاء. لكـن عندمـا تُقـدَّم الإيحـاءات لأشـخاص في حالـة نـوم خفيـف، فإنّهـم يتجاوبـون معهـا، وذلـك مـا اكتشـفه السّـيد «باربـر»، تمامـا مثلـما يفعلـون مـن خـلال التّنويـم المغناطيـسي.

أجـرى عديـد السّـباقين مـن الباحثـين في التّنويـم المغناطيـسي تجـاربَ مماثلـة. في كتابـه الـذي أصبـح مَرْجِعًـا «تَارِيـخ، تَطْبِيـقُ وَنَظَرِيَـةُ التَّنْوِيـمِ المِغْنَاطِيـسِي»، والـذي نُـشِر لأوّل مـرّة سـنة ١٩٠٣، يؤكّـد «ميلـن برانويـل» قائـلا: «يدّعـي العديـد مـن العلـماء ذائعـي الصّيـت والأسـاتذة الكبـار أنهـم تمكّنـوا مـن تحويـل النّـوم الطّبيعـي إلى حالـةٍ مـن التّنويـم المغناطيـسي. ووِفقًـا لـ «ويتيرسـتراند»، فغالبًـا مـا يكـون مـن السّـهل جـدًا التّواصـل مـع الأشـخاص النّائمـين، وخاصّـة الأطفـال منهـم... ذاك أنّ «ويتيرسـتراند» يعتقـد أنّ هـذه الطّريقـة جـدّ فعّالـة، ويؤكّـد أنّـه اسـتخدمها بنجـاح في كثـير مـن الأحيـان». يذكـر «برامويـل» عديـد المنوّمـين الآخريـن ذوي الخـبرة الكبـيرة (مثـل أسـاتذة كبـار بارزيـن مـن قامـات «بيرنهايـم»، «مـول» و«فوريـل»)، والذيـن توصّلـوا للنّتيجـة ذاتهـا. اليـوم، لـن يتحـدّث أيّ مجـرّب عـن «تحويـل النّـوم الطّبيعـي إلى حالـة تنويـم مغناطيـسي»، كل مـا هـو مسـتعدٌّ لقولـه هـو أنّ النّـوم الخفيـف (عـلى عكـس النّـوم العميـق الـذي تختفـي فيـه الموجـات «ألفـا») هـو حالـةٌ يتقبّـل فيهـا العديـد مـن الأشـخاص الإيحـاءات بسـهولة أكـبر، والأمـر مشـابه لمـا يفعلـون عنـد خضوعهـم لتنويـم مغناطيـسي. إذا قيـل لأشـخاص عـلى سـبيل المثـال، وهـم في حالـة نـوم خفيـف، أنّهـم سـوف يسـتيقظون بعـد قليـل وهـم يشـعرون بظـمأ شـديد، فـإنّ العديـد مـن الأشـخاص سيسـتيقظون بحلـقٍ

جـافّ متعطّشـين لشربـة مـاء. قـد يكـون الدّمـاغ غـير نشـطٍ إطلاقًـا بحيـث لا يسـتطيع التّفكـير بشـكل صحيـح؛ لكنّـه يقـظٌ بمـا يكفـي مـن القـدر للاسـتجابة للإيحـاءات، ونقلهـا إلى الجهـاز العصبـي الـلّاإرادي.

كـما سـبق وأن رأينـا، حقّـق الطّبيـب والباحـث السّـويدي الشّـهير «ويترسـتراند» نجاحًـا باهـرًا، وبشـكل خـاصّ مـع العـلاج بالتّنويـم المغناطيـسي لـدى الأطفـال النّائمـين. وتُتَّبَـعُ أسـاليبُه في أيّامنـا هـذه مـن قِبَـل عـدد مـن أطبّـاء الأطفـال الذيـن يعلّمـون الأمّهـات الشّـابات فـنَّ تقديـم إيحـاءات مُسـاعِدة أثنـاء سـاعات النّـوم الخفيـف لأطفالهـن. بفضـل هـذا النّـوع مـن «التّلقـين أثنـاء النّوم»، يمكـن عـلاج الأطفـال مـن التّبـول الـلّاإرادي (سـلس البـول) وعـادة قضـم الأظافـر، كـما يمكـن تحضيرهـم للخضـوع لعمليـة جراحيـة دونَ مخـاوف، أو منحهـم الثّقـةَ والطّمأنينـة عندمـا تصبـح ظـروف حياتهـم مصـدرًا للقلـق لأيّ سـبب كان. رأيـتُ بنفـسي نتائـج رائعـة حقّقهـا التّعليـم العلاجـي أثنـاء النّـوم عنـد الأطفـال في سـنّ مبكـرة؛ ومـن الممكـن دون شـكّ تحقيـق نتائـج مماثلـة عنـد عديـد البالغين.

بالنّسـبة للدّيكتاتـور المسـتقبلي، المغـزى مـن كلّ هـذا شـديد الوضـوح. في ظـل الظّـروف الملائمـة، «التّلقـين أثنـاء النّـوم» فعّـال حقًّـا- وتعـادل فعاليتُـه فعاليـةَ التّنويـم المغناطيـسي. فمعظـم الأشـياء التـي يمكـن فعلهـا بشـخصٍ أو لـه وهـو في حالـة التّنويـم المغناطيـسي، يمكـن فعلهـا بـه أو لـه وهـو في حالـة النّـوم الخفيـف. يمكـن تمريـر الإيحـاءات اللّفظيـة مـن خـلال القـشرة المخّيـة إلى الدّمـاغ الوسـط، جـذع الدّمـاغ ومـن ثـمّ إلى الجهـاز العصبـي الـلاإرادي. لـو كانـت تلـك الإيحـاءات مصمّمـةً بشـكل جيّـد ومكرّرةً

بوتيرة عالية، يمكن لوظائف جسد النّائم أن تُحسَّن، كما يمكن التّدخل فيها، وتثبيت أنماطٍ شعورية جديدة وتعديل القديمة منها، يمكن أيضًا إعطاءُ أوامرَ تُنفَّذ فيما بعد التّنويم، أو تلقين شعارات وصيغ، كما يمكن زرع كلمات مفتاحية مُحفِّزة في الذّاكرة. الأطفال هم أفرادٌ أكثرُ طواعيةً وأكثر استجابةً للتّلقين أثناء النّوم من البالغين؛ وسيستغلّ الدّكتاتور المستقبلي هذه الحقيقة أيّما استغلال. سيعامل الأطفال في سنّ الحضانة ورياض الأطفال وفقًا لإيحاءات تلقين أثناء القيلولة. أمّا بالنّسبة للأطفال الأكبر سنًا، خاصّة منهم أبناء أعضاء الحزب - الأولاد والبنات الذين سيكبرون ليصبحوا قادةً وإداريين ومعلّمين - فستخصّص مدارسٌ داخلية يتم في مناهجها استكمالُ التّعليم النّهاري الممتاز بتدريس ليلي أثناءَ النّوم. أمّا في حالة البالغين، فستولى أهمّية خاصّة بفئة المرضى. كما أثبت ذلك «بافلوف» منذ سنوات عديدة، تصبح الكلاب القوية والمقاوِمة أكثر قابليةً للإيحاء بعد خضوعها لعملية جراحية، أو حينما تعاني من بعض الأمراض المنهِكة. لذلك، سيتأكّد ديكتاتورنا من أن يزوّد كلّ جناح في جميع المستشفيات بأسلاكٍ ناقلة للصّوت. يمكنه أن يصنع من عملية استئصال الزّائدة الدودية، من عملية ولادة، من التهاب رئوي أو التهاب كبدي، مناسبةً لدورة مكثّفة في الولاء والإيمان الحقيقي، وتجديدًا لمبادئ الأيديولوجية السّائدة محليًا. يمكن العثور على جماهير أسيرة أخرى في السّجون، في معسكرات الأعمال الشّاقة، في الثّكنات العسكرية، على متن السّفن المبحرة، في القطارات والطائرات المسافرة ليلا، في غرف الانتظار الكئيبة لمحطّات الحافلات ومحطّات السّكك الحديدية. حتّى وإن لم تكن الاقتراحات التّلقينية أثناءَ النّوم فعّالةً إلّا

بنسبة ١٠ في المائة على الأكثر، فستظل النّتائج مبهرة، وبالنّسبة لديكتاتور، ستظلّ نتائجًا جدّ مرغوبة.

من الإيحاء المضاعَف المرتبط بالنّوم الخفيف والتّنويم المغناطيسي، دعونا ننتقل إلى الإيحاء الطّبيعي عند المستيقظين - أو على الأقل، عند أولئك الذين يعتقدون أنفسهم مستيقظين. (في الواقع، كما يصرّ البوذيون في معتقداتهم، معظمنا نصفُ نائمٍ طوال الوقت، نحن نعيش وكأنّنا نسير أثناء نومنا، نطيع اقتراحات شخصٍ آخر. التّنوير هو اليقظة التّامة. يمكن ترجمة كلمة «بوذا» بكلمة «المستيقِظ»).

وراثيًا، كلّ إنسان فريدٌ من نوعه، ويختلف عن إنسان آخر في نواح كثيرة. طيف الاختلاف الفردي هذا من منظور المعيار الإحصائي واسعٌ بشكل مثير للدّهشة. دعونا نتذكر أنّ القاعدة الإحصائية ليست مفيدة إلّا في الحساب الاكتواري، لا في الحياة الواقعية. لا وجود في الحياة الواقعية لشيء يسمّى الرّجل العادي المتوسّط؛ بل فقط رجالٌ ونساءٌ وأطفال مميَّزين، لكلّ منهم خصوصياته الفطرية الفكرية والجسدية، وكلّهم يحاولون (أو يجدون أنفسهم مجبرين على محاولة) سَكْبَ تنوّعهم البيولوجي في قالب ثقافيّ موحّد ما.

القابلية للإيحاء هي واحدة من تلك الصّفات التي تختلف اختلافًا كبيرًا من فرد لآخر. بلا شكّ، تلعب العوامل البيئية دورها في جعل شخص ما أكثر قابلية للإيحاء من غيره؛ ولكن هناك أيضًا، والأمر أكيد، اختلافات خلقية تساهم في قابلية الأفراد لتقبّل الإيحاء. المقاومة الشّديدة للإيحاء أمرٌ نادر نوعًا

ما؛ ولحسن الحظّ أنّه كذلك. فلو قاوم الجميع الإيحاء بشكل كلي مثلما هو حال بعض الأشخاص، لأصبحت الحياة الاجتماعية مستحيلةَ الوجود. يمكن للمجتمعات أن تعمل بدرجة معقولة من الكفاءة لأنّ لدى معظم النّاس قابليةٌ للإيحاء بدرجات متفاوتة. أمّا الخضوع الكلّي للإيحاء فمن المحتمل أن يكون نادرًا كندرة المقاومة الكليّة له. وهذا من حسن الحظ أيضًا. لأنّه لو كان الكلّ كذلك، فسيصبح الاختيار الحرّ والعقلاني بالنّسبة لغالبية النّاخبين السّاحقة شيئًا مستحيلًا تقريبًا، ولا يمكن حينها للمؤسّسات الديمقراطية أن تبقى، تستمر، ولا حتّى أن تُخْلَق أساسًا.

قبل بضع سنوات، في مستشفى «ماساتشوستس» العام، قامت مجموعةٌ من الباحثين بإجراء إحدى أكثر التّجارب إفادةً، حول تأثير الأدوية الوهمية «بلاسيبو» في تخفيف الآلام. (الدّواء الوهمي هو أيُّ شيء يعتقد المريض أنّه دواءٌ فعّال، لكن ليس له في الحقيقة أيّ تأثير من النّاحية الطّبية). في هذه التّجربة، بلغ عدد المشاركين مائة واثنان وستون مريضًا، وهم أشخاصٌ خضعوا للتّو لعملية جراحية، ويعاني جميعهم من آلام مُعتَبرة. كلّما طلب المريضُ دواءً لتخفيف الألم، أُعطيت له إمّا حقنةٌ من المورفين أو من الماء المقطّر. في الأخير، تلقّى جميع المرضى حقنًا سواءٌ كانت من المورفين أو من الدّواء الوهمي. لم تنقص حدّة الألم عند حوالي ٣٠ في المائة من المرضى الذين تلقّوا الدّواء الوهمي. ومن النّاحية الأخرى، خفّ الألم عند ١٤ في المائة من المرضى بعدَ كلّ حقنة من الماء المقطّر. أمّا نسبة ٥٥ في المائة المتبقية من المجموعة، فشعروا أحيانًا بالارتياح بعد الدّواء

الوهمـي، وأحيانًـا لم يؤثّـر فيهـم البتّـة.

مـا أوجـه الاختـلاف بـين المسـتجيبين للإيحـاء وغـير المسـتجيبين لـه يـا تـرى؟ أظهـرت الدّراسـة والتّجربـة الدّقيقتـان أنّ لا العمـر ولا الجنـس كانـا عامِلَـيْن مهمَّـيْن. فقـد تجـاوب الرّجـال مـع الـدّواء الوهمـي بقـدر تجـاوب النّسـاء معـه، وتفاعـل معـه الشّـباب كـما فعـل مـن يكبرونهـم سـنّا. ولم يَبْـدُ أنّ الـذّكاء الـذي تـمّ قياسـه مـن خـلال الاختبـارات النّمطيـة المعياريـة عامـلًا مهـمًّا أيضًـا. فمتوسـط معـدّل الـذّكاء للمجموعتـين متماثـل تقريبًـا. كمـن الاختـلاف الكبـير الحقيقـي بـين المجموعتـين في طبيعـة مـزاج الأفـراد، ومـا أحسّـوه تجـاه أنفسـهم وتجـاه الآخريـن. فالمسـتجيبون للـدّواء الوهمـي أكـثرُ تعاونـًا مـن غـير المسـتجيبين، وأقـلّ انتقـادًا وشـكًّا. لم يسـبّبوا أيّ مشـاكل للممرّضـات إطلاقًـا، وكان رأيهـم أنّ الرّعايـة التـي تلقّوهـا في المستشـفى ببسـاطة «رائعـة». ورغـم كونهـم أقـلُّ عدائيـةً تجـاه الآخريـن مـن غـير المسـتجيبين، إلّا أنّ المسـتجيبين عمومًـا أكـثرُ قلقًـا بشـأن أنفسـهم مـن البقيـة. وتحـت الضّغـط، يميـل ذلـك القلـق للظّهـور عـلى شـكل عـدّة أعـراضٍ سايكوسـوماتية مختلفـة، كاضطرابـات وعـسر في الهضـم، وإسـهال وصـداع. عـلى الرّغـم مـن قلقهـم أو بسـببه، كان المسـتجيبون أكـثر حريّـة وأقـل تثبيطًـا في إظهـار عواطفهـم مـن غـير المسـتجيبين، وأكـثر تعبـيراً عنهـا. كـما كانـوا أكـثر تدينـاً، أكـثر نشـاطاً في شـؤون كنيسـتهم المحليـة، وأكـثر انشـغالاً، عـلى مسـتوى لاوعـي بأعضائهـم الدّاخليـة الحوضيـة والباطنيـة.

مـن المثـير للاهتـمام مقارنـة أرقـام التّفاعـل مـع الأدويـة الوهميـة مـع التّقديـرات التـي أجراهـا، في مجالهـم الخـاص، مـن كتبـوا حـول

موضوع التّنويم المغناطيسي. يخبروننا أنّه بالإمكان تنويمُ ما يقرب من خُمس السّكان مغناطيسيًا بسهولة بالغة. خُمسٌ آخرٌ مقاومٌ تمامًا لهذا التّنويم، أو يستجيب فقط عندما تُنقِص المخدّرات أو الإجهاد مقاومَتهم النّفسية. يمكن تنويم الثّلاثة أخماس الباقية بسهولة أقلّ إلى حدّ ما من المجموعة الأولى، ولكن بسهولة أكبر بكثير من المجموعة الثّانية. أخبَرني أحدُ منتجي تسجيلات التّلقين أثناء النّوم أنّ حوالي ٢٠ في المائة من زبائنه متحمّسون فعلًا، وأنّهم يُبلِّغون عن نتائج مذهلة في مدّة زمنية قصيرة جدًا. في الطّرف الآخر من طيف قابلية الاستجابة للإيحاء، توجد أقلية بنسبة ٨ في المائة تُطالب بانتظام باسترداد أموالها لعدم نجاعة الطّريقة. بين هذين الطّرفين، يوجد أولئك الذين يفشلون في الحصول على نتائج سريعة، لكنَّ بِهم قابلية الاستجابة للإيحاء يمكن أن تعطي ثمارها على المدى الطّويل. لو واظبوا على الاستماع بإصرار لتعليمات التّلقين المناسبة، فسينتهي بهم الأمر بالحصول على ما يرغبون - الثّقة بالنفس، أو الانسجام الجنسي، أو فقدان الوزن أو كسب المزيد من المال.

تتعارض مُثُلُ الدّيمقراطية والحريّة العليا مع حقيقةٍ صادمة، وهي قابلية البشر للاستجابة للإيحاء. يمكن تنويم خُمسٍ من كلّ هيئةٍ ناخبة في رمشة من العين تقريبًا، كما يمكن تخفيف آلام سُبعهم عن طريق حقنة من الماء، وسيستجيب ربعهم بسرعة وحماس للتّلقين أثناء النّوم. وإلى هذه الأقليات شديدة الاستجابة، يجب إضافة الأغلبية التي تستجيب ببطء، والتي يمكن لأيّ ضليعٍ في مجاله استغلال قابلية استجابتها للإيحاء، فسيكون هذا الأخير مستعدًّا على أكمل وجه لبذل ما يتطلّبه

الأمر من جهد ووقت لازميْن.

هل تتوافق الحريّة الفردية مع درجة عالية من الاستجابة للإيحاء الفردي؟ هل بإمكان المؤسّسات الديمقراطية النّجاة من التّخريب الدّاخلي من قِبل متلاعبين مَهرة بالعقل البشري، والمدرَّبين في علم وفنّ استغلال إمكانية الاستجابة للإيحاء على الصّعيد الفردي كما الجماعي؟ وإلى أيّ مدى يمكن القضاء على الميل الفطري للاستجابة المفرطة للإيحاء من أجل مصلحة الفرد و لصالح مجتمع ديمقراطي من خلال التّعليم؟ إلى أيّ مدى يمكن للقانون أن يسيطر على استغلال الاستجابة المفرطة للإيحاء من قبل رجال الأعمال والدّين والسّياسة؟ بشكل صريح أو ضمنيا، تمّت مناقشة السّؤالين الأوّلين في مقالات سابقة. وفي التي ستلي، سآخذ بعين الاعتبار إشكاليات وسبل الوقاية من هذه الفرضية، والحلول الممكنة.

الفصل الحادي عشر

التّعليم كسبيل نحو الحرية

على التّعليم الذي يصبو للتّحرير أن يبدأ بتأكيد الحقائق، وجرد مجموع القيم، كما عليه أن يواصل تطوير التّقنيات والأساليب المناسبة لتحقيق تلك القيم، ولمكافحة أولئك الذين يختارون لأيّ سببٍ كان تجاهلَ الحقائق أو إنكار القيم.

في فصلٍ سابق، ناقشتُ الأخلاقية الاجتماعية، والتي من خلالها تُبرَّر الآفات والأمراض النّاتجة عن التّنظيم المفرط والاكتظاظ السّكاني، وحتّى أنّها تُشوَّه لجعلها تبدو وكأنّها شيءٌ إيجابي. هل يتوافق نظامُ قِيَمٍ كهذا مع ما نعرفه عن تكوين الإنسان الجسدي والنّفسي؟ تفترض الأخلاقية الاجتماعية أن التّنشئة والمكتسبات من التّعليم ذات أهمّية بالغة في تحديد السّلوك البشري وأنّ الطّبيعة الفطرية - أي المعدّات النّفسو-جسدية التي يولد بها الأفراد - هي عاملٌ بالإمكان إهماله. لكن، هل هذا صحيح فعلًا؟ هل صحيحٌ أنّ البشر ليسوا سوى نتاج بيئتهم الاجتماعية؟ ولو لم يكن الأمر صحيحًا، فما هو تبرير التّأكيد الذي مفاده أن قيمة الفرد أقلُّ أهميةً من قيمة المجموعة التي ينتمي إليها؟

تشير جميع الأدلّة المتاحة إلى النّتيجة التي مفادها أنّ أهمّية الوراثة لا تقلّ عن أهميّة الثّقافة والمنشأ في حياة الأفراد والمجتمعات. على الصّعيد البيولوجي، كلّ فرد فريدٌ من نوعه

ولا يشبه باقي الأفراد. ولهذا، فالحرّية إذن خيرٌ عظيم وميزة، والتّسامح فضيلةٌ عظيمة، بينما التّعبئة أو التّجنيد مصيبةٌ عظيمة. سواءٌ لأسبابٍ تطبيقية أو نظرية، يحرص الديكتاتوريين، المنظِّمون وبعض العلماء على تقليص تنوّع طبائع البشر الذي يقودهم للجنون، وحصره في نوعٍ من التّوحيد القياسي الذي يمكنهم التّحكم فيه والتّعامل معه. في أولى اندفاعات تحمّسه لعلم السّلوكيات، صرّح «جـ بـ واتسن» بشكلٍ قطعي أنّه لم يتمكّن من إيجاد «أيّ دليل يدعم نظرية الأنماط السّلوكية الوراثية، ولا المواهب الخاصّة (الموسيقية منها والفنية وغيرهما) والتي من المفترض أنّها تنتقل وراثيًا في العائلات». وحتّى في وقتنا الحالي، نجد أنّ عالِمًا نفسيًا متميزًا، البروفيسور «بـ فـ سكينر» من جامعة هارفارد، يصرّ على أنّه: «كلّما زاد التّفسير العلمي وأصبح أكثر قابلية للفهم، كلّما بدا أنّ المساهمةَ التي يفتخر بها الفردُ نفسه تقترب من الصّفر. القوى الإبداعية التي يتفاخر بها الإنسان، إنجازاته في مجالات الفنّ والعلم والأخلاقيات، قدرته على الاختيار، وحقّنا في تحميله مسؤوليةَ عواقب اختياراته - في كلّ هذا لا شيءَ واضحٌ في البورتريه الذّاتي الحديث الذي يرسمه العلم لنفسه». باختصار، لم يكتب مسرحيات شكسبير شكسبير نفسه، ولا حتّى «بايكون» أو «إيرل أوف أكسفورد»؛ بل كتبتها إنجلترا الإليزابيثية.

منذُ ما يزيد عن ستّين عامًا، كتب «ويليام جيمس» مقالًا عن «الرّجال العظماء وتأثير بيئتهم»، والذي أراد من خلاله الدّفاع عن الفرد المتميّز ضد اعتداءات «هربرت سبنسر». فقد صرّح «سبنسر» أنّ «العلم (هذا التّجسيد الرّائع الملائم،

في تاريخ معيّن، لآراء الأساتذة فلان وعلّان وغيرهما) قد ألغى الرّجلَ العظيمَ وحطّمه تمامًا. وكتب أنّ «على الرّجل العظيم أن يُصنَّف مع جميع ظواهر المجتمع الأخرى التي أولدته، على أنّه نتاج أسلافه ومن سبقوه». الرّجل العظيم هو، (أو يبدو أنّه) «البادِئ المباشر للتّغييرات... لكن لو وُجِد تفسيرٌ حقيقي لهذه التّغييرات، فلن يكون ذلك إلّا مجموع الظّروف التي أدّت لنشأته ولنشأتها». هذه واحدةٌ من التّأكيدات العميقة الفارغة التي لا يمكن أن نربط بها أيّ معنًى تطبيقي. ما يعنيه فيلسوفنا هو أنّه وبغرض فهم أيّ شيء، علينا أوّلا أن نعرف كلَّ شيء. طبعًا. لكن في الواقع، لن نتمكّن أبدًا من معرفة كلّ شيء. وعليه، يتوجّب علينا الاكتفاء بالفهم الجزئي والأسباب التّقريبية - بما في ذلك تأثير الرّجال العظماء. يكتب «ويليام جيمس» : «لو وُجِدت حقيقة بشرية وحيدة أكيدة، فهي أنّ مجتمع الرّجل العظيم، والذي يستحقّ هذا الاسم عن جدارة، لا يصنع الرّجل العظيم قبل أن يتمكّن هذا الأخير من إعادة صنع المجتمع. القوى الفسيولوجية، والتي لظروفها الاجتماعية والسياسية والجغرافية والأنثروبولوجية علاقةٌ مماثلة للعلاقة التي تربط بين فوهة بركان «فيزوف» والغاز الذي أكتب بواسطة ضوئه الذي ينيرني، هي ما تصنعه. هل يؤكّد السّيد «سبنسر» بهذا أنّ الضّغوطات الاجتماعية احتدّت بتلك القوّة في «ستراتفورد-أبون-آفون» بتاريخ السّادس والعشرين من أبريل عام ١٥٦٤، لدرجة أنّ شخصًا كويليام شكسبير، بكلّ مواهبه الفكرية، كان لابدّ أن يولَد هناك بالضّبط؟ ... وهل يعني أنّه لو مات ويليام شكسبير المذكور آنفًا بسبب مرض الكوليرا في طفولته، فإنّه يتوجّب على أمٍّ أخرى في «ستراتفورد-أبون-

آفون» أن تنجب نسخةً طبق الأصل منه، لإعادة خلق التّوازن الاجتماعي؟»

البروفيسور «سكينر» عالم نفسٍ تجريبي، وأطروحته عن «العلم، والسّلوك البشري» مبنية على الحقائق، ومدعومة بها. لكن لسوء الحظ، تنتمي تلك الحقائق إلى فئةٍ جدّ محدودة، لدرجة أنّه عندما غامر أخيراً بالتّعميم، بدت استنتاجاته غير واقعيّة وسطحية، مثلما كانت استنتاجات المُنظِّر الفيكتوري قبله. وبهذا، فلامبالاة البروفيسور «سكينرز» تجاه ما يسميه جيمس «القوى الفسيولوجية» حتميًا تكاد تضاهي لامبالاة «هربرت سبنسر». إذ نجده يرفض قطعيًا في أقلّ من صفحة واحدة العواملَ الوراثية التي تحدّد السلوك البشري. لا توجد في كتابه أيّ إشارة إلى نتائج الطّب التّكويني، ولا أيّ تلميح لعلم النّفس التّكويني أيضًا، واللذين من خلالهما (ومن خلالهما وحدهما حسب ما يمكنني تقديره) قد يصبح من الممكن كتابة سيرة ذاتية واقعية ومكتملة للفرد فيما تعلّق بالحقائق ذات الصّلة، المهمّة والمساهمة في وجوده - حقائق جسده، وطبعه، ومواهبه الفكرية، بيئته المباشرة مع تغيّراتها المستمرّة، زمانه، جغرافيته وثقافته. علمٌ موضوعه السّلوك البشري شبيهٌ بعلم التّحرك في مجال التّجريد - هو ضروري، لكنّه في حدّ ذاته غير متلائم إطلاقًا مع الحقائق.

فلنتخيّل يعسوبًا، صاروخًا، وموجةً عاتية ستضرب على الضّفة. توضّح هذه الأشياء الثّلاثة مبادئَ قوانين الحركة الأساسية نفسها؛ لكنّها تفعل ذلك بطرق مختلفة، والاختلافات هي على الأقل بذات القدر من أهميّة التّشابه. وحدها، لا يمكن لدراسة

الحركـة أن تُعْلِمنـا بالكثـير (بالـكاد بـأيّ شيء) عـن الـشّيء الـذي يتـمّ تحريكـه في حالـةٍ محـدّدة. وكذلـك، فليـس بإمـكان دراسـة السّـلوك وحدهـا أن تعلمنـا بـأيّ شيء تقريبًـا عـن الفـرد بمكوّنَيْـه العقـلي والجسـدي، الـذي يُظهـر ذلـك السّـلوك في تلـك الحالـة المحـدّدة. لكـن بالنّسـبة لنـا، نحـن المكوَّنـون بدورنـا مـن ارتباطـات الجسـد بالعقـل، تكتسـب عندنـا معرفـة العقـل والجسـد أهمّيـةً بالغـة. بالإضافـة إلى أنّنـا نعلـم بحكـم الملاحظـة والتّجريـب أنّ الاختلافـات والفـوارق بـين الأفـراد بمكوّناتهـم الجسـدية-العقلية كبـيرة للغايـة، وأنّ بإمـكان بعضهـم إحـداث تغيـير جـذري عـلى بيئتهـم الاجتماعيـة.

وحـول هـذه النّقطـة الأخـيرة، يتّفـق السّـيد «برترانـد راسـل» تمامًـا مـع «ويليـام جيمـس» - وأودّ الإضافـة بأنّـه يتفّـق مـع الجميـع تقريبًـا، باسـتثناء مؤيّـدي منهـج «سبنسر» أو العلموية السّـلوكية. مـن منظـور «راسـل»، أسـبابُ التّغيـير التّاريخـي هـي مـن ثلاثـة أنـواع - التغيـير الاقتصـادي، النّظريـة السّياسـية، والشّـخصيات المؤثِّـرة. يقـول «راسـل» : «لا أعتقـد أنّ مـن الممكـن تجاهـل أيٍّ منهـا، أو تفسـيرها بالكامـل عـلى أنّهـا نتيجـة سـببية أخـرى، مـن طبيعـة أخـرى». هكـذا إذن، لـو أنّ بسـمارك أو لينـين ماتـا في طفولتهـما، لـكان عالمنـا مختلفًـا تمامًـا عـمّا هـو عليـه الآن، ويرجـع الفضـل جزئيًـا لبسـمارك ولينـين، أنّـه الآن مـا هـو عليـه. «التاريـخ ليـس علـمًا بعـد، وليـس بالإمـكان سـوى جعلـه يشـبه المنهـج العلمـي، وذلـك مـن خـلال التّزييـف والنّسـيان العمـدي». في الحيـاة الواقعيـة، الحيـاة التـي نعيشـها يومًـا تلـو الآخـر، لا يمكـن أبـدًا تفسـير الفـرد. ويبـدو أنّ مسـاهماته تقـترب مـن الصّفـر مـن

النّاحيـة النّظريـة وحدهـا؛ إذ أنّ جميـع مسـاهماته مـن النّاحيـة العَمَليـة ذات أهميّـة بمـكان. عندمـا يتـمّ إنجـاز عمـلٍ مـا في العـالم، مَـنْ في الحقيقـة يقـوم بهـذا الإنجـاز؟ مـن يفعـل ذلـك بالفعـل؟ مـن تقـوم عيونـه وآذانـه بـالإدراك، وعقلـه بالتّفكـير، ومـن يملـك الشّـعورَ المحفّـز والإرادةَ التـي تتغلّـب عـلى العقبـات وتقهـر الصّعـاب؟ ليسـت البيئـة الاجتماعيـة بـكلّ تأكيـد مـن تقـوم بـكلّ ذلـك. لأنّ المجموعـة ليسـت في حـدّ ذاتهـا كائنًـا حيًـا، هـي فقـط منظّمـةٌ عميـاء غـير واعيـة. كلّ مـا يتـمّ القيـام بـه داخـل مجتمـعٍ، يقـوم بـه أفـراد. وهـؤلاء الأفـراد بطبيعـة الحـال متأثّـرون بشـدّة بالثّقافـة المحليـة، والطّابوهـات، والنّظـام الأخلاقـي، والمعلومـات، والمعلومـات المضلّلـة المغلوطـة المتوارثـة عـن المـاضي والمحفوظـة في كيـانٍ مـن التّقاليـد الشّـفاهية أو الأدب المكتـوب؛ لكـن أيًّـا كان مـا يأخـذه كلّ فـرد مـن المجتمـع (أو كي نكـون أكـثر دقـة، كلّ مـا يأخـذه مـن أفـراد آخريـن مرتبطـين في مجموعـات، أو مـن السّـجلات الرّمزيـة التـي جمعهـا أفـرادٌ آخـرون، أحيـاءً كانـوا أم أمواتًـا) سيسـتخدمه بطريقتـه الفريـدة - بحواسّـه الخاصّـة بـه، وتركيبـه البيوكيميـائي، وجسـده وطبعـه، خصائصـه هـو، لا خصائـص غـيره. ولا يمكـن لأيّ قـدر مـن التّفسـير العلمـي المنهـج مهـما كان شـاملاً أن يفسّر هـذه الحقائـق الواضحـة مـن تلقـاء نفسـها. ودعونـا لا ننـسى أنّ الصّـورة العلميـة التـي يرسـمها البروفيسـور «سـكينر» للإنسـان باعتبـاره نتـاج البيئـة الاجتماعيـة، ليسـت الصّورة العلميـة الوحيـدة. هنـاك أوجـه شـبه أخـرى، أكـثر واقعيـة. خـذ بعـين الاعتبـار عـلى سـبيل المثـال، البورتريـه الـذي يرسـمه البروفيسـور «روجـر ويليامـز». مـا يرسـمه ليسَ سـلوكًا مُجـرّدًا، بـل أفـرادًا بمكوّنَيْهـم الجسـدي-العقلي وهـم بصـدد نهـج سـلوكٍ معـيّن-

أفـراد بمكوّنيهـم الجسـدي-العقلي الذيـن هـم نتـاجٌ جزئي مـن البيئة التـي يتشـاركونها مـع أفـراد آخريـن بمكوّنيهـم الجسـدي-العقلي، وجزئيًـا نتـاج وراثتهـم الخاصّـة. في كتـابَيْ «الحُـدُودُ البَشَرِيـة»، و«أَحْـرَارٌ لكـن غـيرُ متكافئـين»، استرسـل البروفيسـور «ويليامـز»، بزخـم مفصّـل مـن الأدلّـة شـارحًا تلـك الاختلافـات الفطريـة بـين الأفـراد، والتـي لم يدعمهـا الدّكتـور «واتسـون» إطلاقًـا، اختلافـات قاربـت أهمّيتُهـا في وجهـة نظـر البروفيسـور «سـكينر» الصّفـر. عنـد الحيوانـات، يصبـح التّبايـن البيولوجـي ضمـن فصيلـة معيّنـة أكـثرَ وضوحًـا مـع ارتقائنـا عـلى درجـات مقيـاس التّطـور. ويكـون هـذا التّبايـن البيولوجـي الأعـلى عنـد الإنسـان، إذ أنّ البـشر يُظهِـرون درجـةً أكـبرَ مـن التّنـوع البيوكيميـائي والبنيـوي والسّـلوكي مقارنـةً بـأيّ فصيلـة أو أيّ نـوعٍ آخـر. وهـذه حقيقـة واضحـةٌ للعيـان. لكـن مـا أسـميتُه «إرادةَ التّنظيـم»، الرّغبـة في فـرض توحيـدٍ أو تقييـس يُفهَـم عـلى تعدديـة الأشـياء والأحـداث المربكـة، دفعـت العديـد لتجاهـل هـذه الحقيقـة. لقـد قلّلـوا مـن أهمّيـة التّفـرد البيولوجـي، وركّـزوا كلّ اهتمامهـم عـلى العوامـل البيئيـة المتعلّقـة بالسّـلوك البـشري التـي هـي في الحقيقـة أبسـط، وفيـما توصّلـت إليـه المعرفة في الوقـت الحـالي، أكـثرُ قابليـةً للفهـم. فيـما كتـب البروفيسـور «ويليامـز» : «كنتيجـة لهـذا التّفكـير والبحـث المتمحوريـن حـول البيئـة، فقـد تـمّ قبـول مبـدأ التّوحيـد الأسـاسي عنـد الأطفـال وذلـك عـلى نطـاق واسـع، وهـو مبـدأٌ مُعتمَـد مـن قِبَـل مجموعـةٍ كبـيرة مـن علـماء النّفـس الاجتماعـي، وعلـماء الاجتـماع، وعلـماء الأنثروبولوجيـا الاجتماعيـة، والكثـير غيرهـم، بمـن فيهـم المؤرّخـون وعلـماء الاقتصـاد والتربويـون، رجـال القانـون، والسّاسـة. وقـد دُمِـج هـذا الاعتقـاد في نمـط التّفكـير السّـائد لـدى العديـد ممّـن كان لهـم

دورٌ في تشكيل السّياسات التّعليمية والحكومية المنتهجة، وغالبًا ما تمّ قبوله وتبنيه دون أدنى تشكيك من قبل من لا يمارسون من التّفكير النّقدي إلّا القليل».

من المرجّح أن يكون النّظام الأخلاقي المؤسَّس على تقييمٍ واقعي إلى حدّ ما لبيانات التجريب مفيدًا أكثر منه مضرًّا. لكن، استندت العديد من الأنظمة الأخلاقية على تقييم تجريبي ووجهة نظر لطبيعة الأشياء كانا بعيدَيْن كلَّ البعد عن أيّ واقعية بشكل ميؤوس منه. و من المرجّح أن يكون نظامٌ أخلاقي كهذا مضرًّا أكثر من كونه نافعًا. وهكذا، وحتّى وقتٍ ليس بالبعيد، ساد الاعتقاد أنّ سوء الأحوال الجوية، والأمراض التي تصيب الماشية، والعجز الجنسي هي أشياءٌ يمكن أن تنجم، وفي كثيرٍ من الحالات هي بالفعل ناجمة عن أعمال سحرة أشرار سيّئي النّوايا. ولذلك أصبح القبض على السّحرة وقتلهم واجبًا - وعلاوةً على ذلك، واجبًا بأمرٍ إلهي حُدِّد في سفر موسى الثّاني: «لا تتحمل ساحرة لتعيش». وقد تسبّبت الأنظمةٌ الأخلاقية والقانونية التي استندت إلى هذه النّظرة الخاطئة لطبيعة الأشياء (خلال القرون التي أخذها رجال السّلطة على محمل الجدّ) في أفظع الشّرور. خلق ذلك عربدة التّجسس، والقتل العشوائي، والقتل المقنّن بأحكام قضائية، وهي ممارسات جعلتها تلك الآراء الخاطئة حول السّحر منطقيةً بل وإلزامية، والتي لم تصل إلى مستواها أيٌّ فظائع أخرى تضاهيها إلى غاية وقتنا الحالي، عندما أَمَرَتْ بتنفيذ الفظائع على نطاقٍ أوسع وبرّرتها كلٌّ من الأخلاقية الشّيوعية، المبنية على وجهات نظر خاطئة حول الاقتصاد، والأخلاقية النّازية، القائمة على وجهات نظر خاطئة حول العِرْق. ومن

المرجّح أن تتبع عواقبٌ هي بالكاد أقلّ فظاعة التّبني العام لنظام أخلاق الاجتماعية مبني على وجهة النّظر الخاطئة التي مفادها أنّ جنسنا، الجنس البشري، هو نوعٌ اجتماعي بالكامل، وأنّ الأطفال يولدون مُوحَّدين، وأنّ الأفراد هم نتاج تكييف البيئة الجماعية وضمنها. لو كانت وجهات النّظر صحيحة، ولو كان البشر بالفعل أعضاءَ نوع اجتماعي حقيقي، ولو كانت اختلافاتهم الفردية تافهةً ويمكن تعديلها بالكامل من خلال تطبيق التّكييف المناسب، عندها فمن الواضح أنّه لا حاجة للحريّة على الإطلاق، وسيكون اضطهاد الدّولة للزّنادقة الذين يشترطون تلك الحرية مبرَّرًا بالكامل. بالنّسبة للنّملة البيضاء الفردية، تُمثِّل خدمةُ مملكة النّمل الحريةَ المثالية. لكنّ البشرَ ليسوا اجتماعيين بشكل مطلق؛ هم فقط اجتماعيون بشكلٍ معتدل. ليست مجتمعاتهم كائنات حيّة، مثل الخلية أو عش النمل؛ بل هي منظّمات، بعبارة أخرى، هي آلاتٌ مخصّصة للحياة الجماعية.

في رواية «العالم الجديد الشجاع»، تمّ ضمان السّلوك المرغوب فيه اجتماعيًا من خلال عملية مزدوجة من التّلاعب الجيني، والتّكييف في مرحلة الطّفولة المبكرة. خُلِق الأطفال في أنابيب، ولضمان درجةٍ عالية من التّماثل في المنتج البشري، تمّ استخدام بويضات من عددٍ محدود من الأمّهات، ومعالجة كلّ بويضة بطريقة تجعلها تنقسم مرارًا وتكرارًا، منتجةً بذلك دفعات من التّوائم المتطابقة قد يبلغ عددها المائة أو يفوق. بهذه الطريقة، أمكن إنتاج خدمٍ معياريين لآلاتٍ معيارية. وكان تقييس الخدم يُكمَّل بإتقان بعد الولادة بالتّكييف خلال الطّفولة المبكرة،

واستعمال التّلقين أثناء النّوم، والنّشوة المُحْدَثة كيماويا كبديل للرّضى النّاجم عن شعور الفرد بإبداعه وحريته. في العالم الذي نعيش فيه الآن، كما تمّت الإشارة إليه في الفصول السّابقة، تعمل قوًى كبيرة غير شخصية على تجنيد السّلطة والمجتمع. لا يزال التّوحيد الجيني للأفراد شيئًا مستحيلاً؛ لكن الحكومة الكبيرة، والشّركات الكبرى تمتلك وتتحكّم بالفعل، أو ستفعل في القريب العاجل، بجميع تقنيات التّلاعب بالعقل التي وصفتُها في رواية «العالم الجديد الشّجاع»، إضافةً إلى تقنيات أخرى كنتُ محدودَ الخيال بشكل كبير لابتكارها. في ظلّ عجزهم عن فرض التّوحيد الوراثي على الأجنة، سيحاول حكّام عالم الغد المكتظّ بالسّكان والمفرط في التنظيم فرضَ التّوحيد الاجتماعي والثّقافي على البالغين، وعلى أطفالهم. ولتحقيق هذه الغاية، سيستخدمون (إلّا لو مُنِعوا من ذلك) جميعَ تقنيات التّلاعب بالعقل التي في متناولهم، ولن يتردّدوا في تعزيز أساليب الإقناع غير العقلاني عن طريق الإكراه الاقتصادي، والتّهديدات بإلحاق الضّرر الجسدي من خلال التّعنيف. ولو أردنا تجنّب هذا النّوع من الاستبداد، فالأحرى بنا ويجب علينا أن نبدأ على الفور في تثقيف وتعليم أنفسنا وأطفالنا، من أجل الحريّة والحكم الذّاتي.

يجب على هذا التّعليم من أجل بلوغ الحرّية أن يكون، كما سبق وأن قلت، تعليمًا مرتكزًا على الحقائق والقيم أوّلاً وقبلَ كلّ شيء - الحقائق التي هي التّنوع الفردي، والتّفرد الجيني، ثمّ قيم الحرية، التّسامح والإحسان المتبادل التي هي النّتائج الأخلاقية لتلك الحقائق. لكن للأسف، المعرفة الصّحيحة والمبادئ

السّليمة لا يكفيان. يمكن لوهم مثير أن يُغطّي على حقيقةٍ غير مثيرة. وغالبًا ما تكون مناشدةٌ ماهرة للشّغف أقوى من كلّ القرارات الجيّدة. إذ لا يمكن تحييد آثار الدّعاية الكاذبة وسيئة النّية إلّا بتدريبٍ شاملٍ في فنّ تحليل تقنياتها، والرّؤية الواضحة التي يمكنها الكشف عن مغالطاتها. جعلَت اللّغةُ تَقدّمَ الإنسان من الحياة الحيوانية إلى الحضارة شيئًا ممكنًا. لكنها أيضًا ألهمت ذلك الجنون المستمر، وذلك الشّر الشّيطاني الحقيقي، واللّذين هما أيضًا بالقدر ذاته خصائص السّلوك البشري، تمامًا كما هي الفضائل المستوحاة من اللغة للتّفكير المنهجي، والإحسان الملائكي المستمر. تسمح اللّغة لمستخدميها بصبّ اهتمامهم على الأشياء والأحداث، حتّى لو غاب كلٌّ من الأشخاص الأشياء، والأشخاص، وفي حالة عدم وقوع الأحداث آنيًا. تعطي اللّغة تعريفًا لذكرياتنا، ومن خلال ترجمة التّجارب إلى رموز، تحوّل فوريةَ الرّغبة أو القرف، الكراهية أو الحب، إلى مبادئ شعورية وسلوكية ثابتة. بطريقة تتجاوز وَعْيَنا تمامًا، يختار نظام الدّماغ الشّبكي من بين مجموعة لا حصرَ لها من المحفّزات، تلك التّجارب القليلة ذات الأهمية البالغة بالنّسبة لنا. ومن هذه التّجارب المنتقاة بطريقة لاواعية، نختار بشكل أو بآخر عددًا أقلّ لنصنع منه مبدأً مجرّدًا بطريقة واعية، والذي نضع عليه تسميات من مفرداتنا، ثم نصنّفه ضمن نظامٍ يكون ميتافيزيقيًا وعلميًا وأخلاقيًا في آنٍ واحد، هو نفسُه مكوّنٌ من كلمات أخرى على مستوى أعلى من التّجريد. في الحالات التي تمّ فيها الانتقاء والتّجريد بواسطة نظام ليس شديدَ الخطأ في نظرته لطبيعة الأشياء، وتمّ انتقاء التّسميات اللّفظية بذكاء واعٍ، وفُهِمت طبيعتها الرّمزية بوضوح تام، يمكن

لسلوكنا حينها أن يكون واقعيًا ومقبولًا. لكن، وتحت تأثير كلمات مختارة بشكل سيّئ، والمطبَّقة دوَن أيّ فهم لطابعها الرّمزي، وأمام تجارب اختيرت وجُرِّدت في ضوء نظام أفكار خاطئة، نحن قادرون على التّصرف بشراسة وغباءٍ منظّم، ولا يمكن حتّى للحيوانات -ولحسن الحظّ - محاكاة ذلك التّصرف (وتحديدًا لأنّها غبيّة وعاجزة عن الكلام).

في دعايتهم المناهضة للعقلانية، يحرّف أعداء الحرية موارد اللغة بشكلٍ منهجي من أجل الدّوس على ضحاياهم ودفعهم للتّفكير والشّعور والتّصرف كما يريدونهم هم، المتلاعبون بالعقول، أن يفكّروا ويشعروا ويتصرّفوا. التّعليم بهدف بلوغ الحرية (وكذا الحبّ والذّكاء اللّذين هما في آنٍ واحد شرطا الحرية ونتائجها)، من بين أمور أخرى، يجب عليه أن يكون تعليمًا للاستخدامات الصّحيحة والسّليمة للّغة. كرّس الفلاسفة على مدى الجيلين أو الثّلاثة أجيال الماضية قدرًا كبيرًا من الوقت والتّفكير لتحليل الرّموز، وكذا لتحليل معنى المعنى. كيف ترتبط كلماتنا وجملنا بالأشياء والأشخاص والأحداث التي نتعامل معها في حياتنا اليومية؟ ستتطلّب منّا مناقشة هذه الإشكالية كثيرًا من الوقت، وستقودنا بعيدًا جدًّا عن الموضوع. يكفي القول أنّ جميع المواد الفكرية من أجل توفير تعليم سليم في الاستخدام الصّحيح للغة متاحةٌ الآن - وذلك في جميع المستويات، ابتداءً من روضة الأطفال وصولا إلى جامعات ما بعد التّدرّج. يمكن الانطلاق في هذا النّوع من التّعليم على الفور، تعليم فنّ التّمييز بين الاستخدام الملائم وغير المناسب الملائم للرّموز. في الحقيقة، كان بالإمكان الانطلاق فيه في أيّ

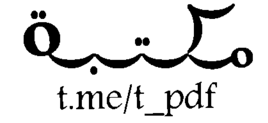
لحظة خلال الثّلاثين أو الأربعين عامًا الماضية. ورغم ذلك، لا يتمّ تعليم الأطفال في أيّ مكان، بطريقة منهجية، تمييزَ التّأكيدات الصّادقة من الكاذبة، والتّأكيدات التي تحمل معنًى من تلك المجرّدة منه. ولماذا الحال هو على ما هو عليه؟ لأنّ من هم أكبر منهم، وذلك حتّى في البلدان الديمقراطية، لا يريدون لهم أن يتلقّوا هذا النّوع من التّعليم.

في هذا السّياق، تاريخ «معهد تحليل البروباجاندا» الوجيز والحزين مهمٌّ جدًّا. تأسّس المعهدُ سنة ١٩٣٧، عندما كانت البروباجاندا النّازية في أوجّ صخبها وفعاليتها، على يد السّيد «فيلين»، وهو محبّ للبشرية من «نيو إنجلاند». وتحت رعايته، أُجريت تحليلات لمناهج الدّعاية غير العقلانية، وأُعِدَّت العديد من النّصوص لتعليم طلاب المدارس الثّانوية والجامعات. ثم جاءت الحرب - حربٌ شاملةٌ وعلى جميع الجبهات، العقلية منها لا تقلّ أهميّة عن الجسدية. بينما شنّت جميع حكومات الحلفاء «حربًا نفسية»، بدا ذلك الإصرار على ضرورة تحليل الدّعاية نوعًا ما فظًّا. تمّ إغلاق المعهد سنة ١٩٤١. لكن، وحتّى قبل بدء الهجمات العدائية، تواجد العديد من الأشخاص ممّن رفضوا بشدّة طبيعة أنشطته. على سبيل المثال، رفض بعض المعلّمين تدريس تحليل الدّعاية باعتبار أنّه سيزرع في المراهقين طبع السّخرية والاستهزاء. كما لم ترحبّ به السّلطات العسكرية التي كانت تخشى أن يشرع المجنّدون في تحليل أقوال مدرّبيهم من الرّقباء، والتّشكيك بها. ثمّ أتى دور رجال الدّين وخبراء الدّعاية والإشهار. عادى رجال الدّين تحليل الدعاية باعتبار ميوله لتقويض الإيمان، والتّقليل من ارتياد الكنائس، بينما

عاداه خبراء الإشهار على أساس أنّه قد يقوّض الولاءَ للعلامة التجارية، ويقلّل كنتيجة لذلك من حجم المبيعات.

لم تكن هذه المخاوف والكراهية بلا أساسٍ قائم. قد يكون التّمحيص الشّديد والتّدقيق من قبل عدد كبير من العامّة فيما يقوله القساوسة والمسؤولون أمرًا تخريبيًا وتمرّديًا للغاية. في شكله الحالي، يعتمد النّظام الاجتماعي من أجل استمرارية وجوده، ودون طرح الكثير من الأسئلة المحرجة، على قبول الدّعاية التي يصنعها مَنْ هُمْ في مراتب السّلطة، والذين قدّستهم الدّعاية في شرعيةِ مراتبهم بحكم التّقاليد والأعراف المحلية السّائدة. ومرّة أخرى، تكمن المشكلة في إيجاد الحلّ الوسط. يجب أن يتمتّع الأفرادُ بقابلية الاستجابة للإيحاء بما يكفي ليكونوا مستعدّين وقادرين على جعل مجتمعاتهم تعمل بشكل عادي، لكن ألّا تكون تلك القابلية كبيرةً جدًّا ليقعوا عاجزين تحت سحر المتلاعبين المحترفين بالعقول. وبالمثل، يجب تعليمهم فقط بالقدر الكافي لتحليل الدّعاية، من أجل حمايتهم من الاعتقاد السّاذج غير النّاقد وسطَ الهراء السّائد، لكن لا يجب أن يتمّ ذلك لدرجة تجعلهم يرفضون تمامًا التّدفقات التي لا تكون دائمًا عقلانية من طرف حرّاس التّقاليد والمحافظين عليها من ذوي النّوايا الحسنة. ربّما لن يكون أبدًا من الممكن إيجاد الحلّ الوسط بين السّذاجة التّامة والتّشكيك المُطلَق من خلال التّحليل وحده، ولا الإبقاء والمحافظة عليه. يجب استكمال هذا التّناول السّلبي للمشكلة بتناولٍ أكثر إيجابية - بالإعلان على مجموعة من القيم تكون في العموم مقبولةً بناءً على أساس متينٍ من الحقائق. أوّلاً وقبل كل شيء،

قيمة الحرية الفردية، وذلك بناءً على حقائق التّنوع البشري والتّفرد الجيني؛ قيمة المحبّة والتّعاطف والرّحمة، بناءً على الحقيقة القديمة المألوفة التي أعاد الطّب النّفسي الحديث اكتشافها مؤخرًا - حقيقة أنّه وبغضّ النّظر عن تنوعّهم الفكري والجسدي، يبقى الحبّ ضروريًا للبشر مثل ضرورة الغذاء والمأوى؛ وأخيرًا قيمة الذّكاء، التي من دونها لن يكون للحبّ منفعة، ويستحيل أن تتحقّق الحرية. ستمنحنا مجموعة القيم هذه معاييرَ تمكّننا من الحكم على الدّعاية. قد تُرفَض الدّعاية التي يتبيّن أنها غير منطقية، لا عقلانية ولا أخلاقية. بينما قد تُقبل تلك التي بالكاد تكون عقلانية، لكنّها تتوافق مع الحبّ والحرية، ولا تتعارض مع مبدأ ممارسة الذّكاء، وذلك بشكلٍ مؤقّت، لما تمنحه في المقابل.



الفصل الثاني عشر

ما الذي بالإمكان فعله؟

يمكننا أن نتلقى تعليمًا بهدف بلوغ الحرية - تعليمًا أفضل بكثير من الذي نتلقّاه في الوقت الحاضر. لكنّ الحرية، كما حاولتُ تبيان ذلك، مهدَّدةٌ بكثير العوامل من عديد الجبهات - ديموغرافية، اجتماعية، سياسية، ونفسية. لمرضنا العديد من الأسباب المتزامنة، ولا يمكن علاجه إلّا من خلال العديد من العلاجات المتكاملة في الوقت نفسه. في تعاملنا مع أيّ حالة إنسانية معقّدة، يجب علينا أخذ جميع العوامل ذات الصّلة بعين الاعتبار، لا كلّ عاملٍ على حدة. لا يمكن بلوغ الهدف إلّا بتجنيد العوامل جميعها. الحرية مهدَّدة، وقد أصبح التّعليم من أجل بلوغ الحرية ضروريًا الآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى. كما هي ضرورية العديد من الأمور الأخرى - على سبيل المثال، التّنظيم الاجتماعي بهدف الوصول إلى الحرية، وتحديد النّسل من أجل الحرية، والتّشريع من أجل الحرية. لكن دعونا نبدأ بآخر هذه العناصر.

منذ زمن «الميثاق الأعظم»[٦]، وحتّى قبل ذلك بكثير، اهتمّ صنّاع القانون الإنجليز بحماية الحرية الجسدية للفرد. للشّخص المسجون لأسبابٍ قانونية مشكوك فيها الحق، وذلك بموجب

٦ Magna Carta

«القانـون العـام» كـما يوضّحـه القانـون الأسـاسي لعـام ١٦٧٩، في الاستئناف أمـام إحـدى محاكـم العـدل العليـا، مـن أجـل استصدار أمـرٍ بالمثـول أمـام المحكمـة (habeas corpus) . يبعـث بهـذا المسـتند قـاضي المحكمـة أو الهيئـة العليـا إلى مديـر السّـجن أو السّـجان، ويأمـره بإحضـار الشّـخص الـذي يحتجـزه إلى المحكمـة للنّظـر في قضيتـه في غضـون فـترة زمنيـة محـدّدة - وتجـب الملاحظة أنّ الأمـرَ ليـسَ بإحضـار الشّـكوى المكتوبـة للشّـخص، ولا ممثّليـه القانونيـين، بـل corpus جسـده (باللاتينيـة)، جسـده ذاك الـذي أُجـبِر عـلى النّـوم عـلى الألـواح، وعـلى أن يشـمّ رائحـة هواء السّـجن العفـن، وعـلى أن يـأكل طعـام السّـجن المقـزّز المثـير للاشـمئزاز. هـذا الاهتـمام بالـشّرط الأسـاسي للحريـة - أي غيـاب القيـود الماديـة - ضروريٌّ دون أدنى شـك، لكنّـه ليـس الـشّيء الـضّروري الوحيـد. مـن الممكـن جـدًّا لإنسـان أن يتواجـد خـارج أسـوار السّـجن دون أن يكـون حـرًّا - ألّا يكـون تحـت أيّ قيـود جسـدية، ويكـون مـع ذلـك أسـيرًا نفسـيًا، مضطـرًا للتّفكـير والشّـعور والتّـصرف تمامًـا مثلـما يريـده ممثّلـو الدّولـة القوميـة، أو أيّ مصالـح خاصّـة داخـل الأمّـة أن يفكّـر ويشـعر ويتصرّف. لـن يكـون هنالـك أبـدًا مهـما كان شيءٌ مماثـلٌ للأمـر بإحضـار العقـل، habeas mentem ؛ ذلـك لاسـتحالة أن يجلـب أيُّ سـجّان أو مديـر سـجن عقـلًا مسـجونًا بصـورة غـير قانونيـة إلى المحكمـة، ولـن يكـون أيّ شـخصٍ سُـجِن عقلـه مـن خـلال إحـدى الأسـاليب التـي ذُكِـرت آنفًـا في المقـالات السّـابقة في وضـعٍ يسـمح لـه بتقديـم شـكوى عـن ظـروف أسره. طبيعـةُ الإكراه النّفـسي ذاتهـا تجعـل مـن يتصرّفـون يعتقـدون بأنّهـم يتصرّفـون بمـلء إرادتهـم. لا يعلـم الشّـخص ضحيـة التّلاعـب بالعقـل أنّـه ضحيـة. بالنّسـبة لـه، جـدران سـجنه لا تُـرى، ويعتقـد أنّـه حـرّ.

لا تظهـر حقيقـة كونـه ليـس حـرّاً إلّا للآخريـن؛ وعبوديتـه بذلـك موضوعيـةٌ بحتـة.

لا، أعيـدُ وأكـرّر، لا يمكـن أن يتواجـد شيءٌ اسـمه الأمـر بإحضـار العقـل، habeas mentem. لكـن يمكـن لتشريـع وقـائي أن يوجَـد - قانـونٌ يَحْظُـر الاسـتعبادَ النّفسي، تشريـعٌ لحمايـة العقـول مـن عديمـي الضّمـير مروّجـي الدّعايـة السّـامة أولئك، عـلى غـرار قوانـين حمايـة الأجسـاد مـن المتعهّديـن عديمـي الضّمـير، بائعـي الأغذيـة المغشوشـة والمـوادّ الخطـرة. عـلى سـبيل المثـال، يمكـن، وأعتقـد أنّـه يجـب أن يكـون هنالـك تشريـعٌ يحـدّ مـن حـقّ السّـلطات العموميـة، مدنيـةً كانـت أو عسـكرية، في إخضـاع الجماهـير الأسـيرة تحـت قيادتهـم أو المحتجزيـن لديهـم لطريقـة التّلقـين أثنـاء النّـوم. كـما يمكـن، وأعتقـد أنـه يجـب أن يكـون هنالـك تشريـعٌ يحظـر اسـتخدام الإسـقاط اللّاشـعوري المموّه في الأماكـن العامّـة، أو عـلى شاشـات التّلفزيـون. يمكـن، وأعتقـد أنـه يجـب أن يكـون هنالـك تشريـعٌ لا يمنـع المرشَّـحين السّياسـيين مـن إنفـاق أكـثرَ مـن مبلـغ معـيّن مـن المـال عـلى حملاتهـم الانتخابيـة فحسـب، بـل يمنعهـم أيضًـا مـن اللّجـوء إلى نـوع الدّعايـة المناهضـة للعقلانيـة، والتـي تُجـرِّد العمليـة الديمقراطيـة برمّتهـا تمامًـا مـن كلّ معنـى.

يمكـن لتشريـعٍ كهـذا أن يكـون مفيـدًا، لكن لـو اسـتمرّت الآن القوى غـير الشّـخصية العظمـى المهـدِّدة للحريـة في تسـارع اكتسـابها لحيّـز أكـبر، فتشريـعٌ مماثـل لـن يصمـد مطـوّلًا. سـتكون أفضـل الدّسـاتير وأحسـن القوانـين الوقائيـة عاجـزةً أمـام الضّغـط المتزايـد لـكلٍّ مـن الاكتظـاظ السّـكاني والإفـراط في التّنظيـم الـذي تفرضـه الأعـداد المتزايـدة، والتّقـدم التكنولوجـي. لـن تُلغـى الدّسـاتير،

وستبقى القوانين الجيّدة ضمن إطار كتب التّشريع؛ لكنّ مظاهر الليبرالية هذه بالكاد تخفي أو تُجَمِّل مادّةً مُعاديةً بشدّة لليبرالية في الحقيقة. بالنّظر للزّيادة السّكانية والتّنظيم المفرط غير الخاضعَيْن للرّقابة، يمكننا أن نتوقّع رؤية عملية في البلدان الدّيمقراطية معاكسة تمامًا لتلك التي حَوَّلَتْ إنجلترا إلى ديمقراطية، مع احتفاظها بجميع الأشكال الخارجية للنّظام الملكي. بفعل الضّغط الذي يولّده تسريع الزّيادة السّكانية، والتّنظيم المفرط، وبفعل أساليب أكثر فاعلية للتّلاعب بالعقل، ستغيّر الديمقراطيات طبيعتَها؛ فيما ستبقى الأشكال القديمة الغريبة - من الانتخابات، البرلمانات، المحاكم العليا وما إلى ذلك. بينما ستكون المادّة الضّمنية التّحتية في الواقع نوعًا جديدًا من الشّمولية غير العنيفة. كلّ المسمّيات التّقليدية، كل الشّعارات المقدسة ستبقى كما كانت عليه في الأيّام الخوالي. وستصبح كلّ من الدّيمقراطية والحرية موضوعَ كلّ بثٍّ تلفزيوني ونشرٍ صحفي تحريري - لكن ستكون الدّيمقراطيةَ والحريةَ بالمعنى البيكويكي الصّارم للكلمتين. وأثناء ذلك، سيدير العرضَ كما يرونه مناسبًا كلّ من الأوليغارشيا الحاكمة ونخبتهم المدرّبة تدريباً عالياً من الجنود، والشّرطة وصنّاع الفكر، أضف إلى ذلك المتلاعبين بالعقول.

كيف بإمكاننا السّيطرة على القوى غير الشّخصية الهائلة التي تهدّد الآن حرياتنا التي اكتسبناها بصعوبة؟ على المستوى اللّغوي، وعلى العموم، من الممكن الإجابة على هذا السّؤال بمنتهى السّهولة. فلنأخذ مشكلة الزّيادة السّكانية بعين الاعتبار: تضغط أعدادُ البشر المتزايدة بشكل متسارعٍ على الموارد

الطّبيعية؛ ما الذي علينا فعله حيال هذا؟ من الواضح أنه يجب علينا في أسرع الآجال، تقليص معدّل الولادات إلى الحدّ الذي لا يتجاوز فيه معدّل الوفيات. وفي الوقت نفسه يجب علينا، في أسرع الآجال أيضًا، زيادة الإنتاج الغذائي؛ وعلينا وضعُ وتنفيذ سياسة عالمية للحفاظ على أراضينا وغاباتنا، وتطوير بدائل عملية لأنواع الوقود المتوفّرة حاليا، ومن المفضّل أن تكون تلك البدائل أقلّ كمًّا؛ إذ بينما نقوم باقتصاد مواردنا المتناقصة من المعادن التي يسهل استخلاصها، يجب علينا إيجاد طرق جديدة وغير مكلفة لاستخراج هذه المعادن من خامات أكثر فقرًا - باعتبار مياه البحر أفقر هذه الخامات على الإطلاق. لا داعي للتّذكير بأنّ قولَ كلّ هذا من الجانب النّظري أسهل بكثير من تنفيذه.

يجب تقليل الزّيادة السّنوية لأعداد الولادات. ولكن كيف يكون ذلك؟ أمامنا خياران - المجاعة والأوبئة والحرب من ناحية، وتحديد النّسل من ناحية أخرى. سيختار أغلبنا تحديدَ النّسل - لنجد أنفسنا على الفور في مواجهة مشكلة تمثّل في الوقت نفسه أحجيةً تمسّ مجالات عدّة، كعلم الفيزيولوجيا وعلم الأدوية وعلم الاجتماع، علم النّفس وحتى اللّاهوت. لم تُختَرَع «الحبوب» بعد. لكن عندما، وهذا لو تمّ اختراعها، كيف سيكون ممكنًا توزيعها على مئات الملايين من الأمّهات المحتملات (أو، إذا كانت حبوبًا تعمل على الذّكور، كيف ستوزّع على الآباء المُحتمَلين) اللائي سيتعيّن عليهن تناولها، لو كان لزامًا تخفيض معدّل المواليد في النّوع البشري؟ وبأخذ العادات الاجتماعية القائمة، وقوى الجمود الثّقافي والنّفسي في الحسبان،

كيف يمكن إقناع من يجب عليهم تناول تلك الحبوب وهم يرفضون ذلك، ليغيّروا رأيهم؟ وماذا عن مسألة اعتراضات الكنيسة الكاثوليكية الرّومانية على أيّ شكل من أشكال تحديد النسل باستثناء ما يسمّى بطريقة الحساب - وهي طريقة أثبتت بالمناسبة حتّى الآن أنّها غير فعّالة إطلاقًا في خفض معدّل الولادات في المجتمعات المتخلّفة صناعيا، والتي أصبح فيها التّخفيض ضرورةً عاجلة؟ يجب طرح الأسئلة حول هذه الحبوب الفرضية المستقبلية، مع احتمالٍ ضئيل في الحصول على إجابات مرضية، حول الطّرق الكيميائية والميكانيكية لتحديد النّسل المتاحة إلى هذا الحين.

عندما ننتقل من مشاكل تحديد النّسل إلى مشاكل زيادة المؤن الغذائية المتاحة، وإشكالية الحفاظ على مواردنا الطبيعية، تواجهنا صعوبات ليست ربّما كبيرة جدًا، لكنّها تظلّ معتبرة. هنالك مشكلة التّعليم في المقام الأوّل. كم من الوقت سيتطلّب تعليم العدد الذي لا يُحصى من الفلّاحين والمزارعين، الذين هم المسؤولون اليوم عن تزويد العالم باحتياجاته من غذاء، كي يحسّنوا طرقهم وأساليبهم؟ وعند إكمالهم لتعليمهم وتكوينهم، هذا إن فعلوا، أين لهم أن يجدوا رؤوس الأموال التي سيقتنون بها الآلات والوقود ومواد التّشحيم، الطّاقة الكهربائية، الأسمدة والسّلالات المُحسَّنة من النّباتات والحيوانات، والتي بدونها سيكون أفضلُ تعليمٍ زراعي عديم الفائدة؟ وبالمثل، من سيقوم بتعليم البشر مبادئ وتطبيقات «المحافظة» على المحاصيل؟ وكيف سيكون بالإمكان منع المواطنين-الفلّاحين الجياع من الاستغلال المكثّف للأرض في بلدٍ يتزايد فيه عدد السّكان، ومعه

مطالبهـم الغذائيـة بسرعـة جنونيـة؟ ولـو كان منعهـم مـن ذلـك ممكنًـا، مـن سـيعيلهم بينـما تسـتعيد الأرض المكلومـة والمُنهَكـة تدريجيًـا عافيتهـا وخصوبتهـا لـو ظـلّ ذلـك ممكنـا؟ أو خُـذْ بعـين الاعتبـار المجتمعـات المتخلّفـة التـي تحـاول الآن أن تصبـح دولًا مصنّعـة. إذا نجحـت، فـما الـذي سـيمنعها في جهودهـا اليائسـة للّحـاق بالرّكـب والمواكبـة، مـن إهـدار مـوارد الكوكـب التـي لا تعـوَّض، بمثـل الغبـاء والتّعسـف الـذي أهـدر بـه سـابقوهم في السّـباق المـواردَ الطّبيعيـة نفسـها؟ وعندمـا يـأتي وقـت تقديـم الحسـابات، أيـن سـيكون ممكنًـا في البلـدان الفقـيرة إيجـاد المـوارد البشريـة المؤهَّلـة ورؤوس الأمـوال الضّخمـة التـي مـن الـضّروري اسـتثمارها لاسـتخراج المعـادن اللّازمـة مـن الخامـات، والتـي يكـون تركيزهـا ضعيفًـا جـدًّا في الظّـروف الرّاهنـة، لجعـل الاسـتخلاص ممكنًـا تقنيًـا ولتبريـره اقتصاديًـا؟ مـن الممكـن، أن تتواجـد في الوقـت المناسـب إجابـة عمليـة عـلى كلّ هـذه التّسـاؤلات. لكـن متـى؟ وكـم سيسـتغرق ذلـك مـن وقـت؟ فمهـما كان السّـباق القائـم بـين الأعـداد البشريـة المتزايـدة والمـوارد الطّبيعيـة، الوقـت ليـس في صالحنـا إطلاقًـا. بحلـول نهايـة القـرن الحـالي، ولـو حاولنـا بجهـد أكـبر، قـد يكـون هنـاك ضعـفُ كميـة الطّعـام المتوفّـرة اليـوم في أسـواق العـالم. لكـن بالمقابـل سـيتواجد أيضًـا ضعـف عـدد الأشـخاص المتواجديـن الآن، كـما سـيعيش المليـارات مـن هـؤلاء في بلـدان مصنّعـة جزئيًـا ليسـتهلكوا عـشرة أضعـاف الطّاقـة والميـاه والخشـب والمعـادن التـي يسـتحيل تعويضهـا مقارنـةً بمـا يسـتهلكونه الآن. باختصـارٍ وفي كلمـة، سـيكون الوضـع الغذائي سـيئًا كـما هـو عليـه اليـوم، ووضعيـة مـوارد المـواد الخـام أسـوأ بكثـير مـمّا هـي عليـه الآن.

إيجاد حلّ لمشكلة التّنظيم المفرط هو بالكاد أقلّ صعوبةً من إيجاد حلٍّ لمشكلة نضوب الموارد الطبيعية وأعداد السّاكنة المتزايدة. على المستوى اللّفظي، وعلى العموم، الجوابُ في مجمله بسيطٌ للغاية. وبالتّالي، فمن المسلّمات أنّ السّلطة تتبع الملكية. لكن الآن، من الحقائق التاريخية أنّ وسائل الإنتاج تحوّلت سريعًا إلى ملكية احتكارية للشّركات الكبرى والحكومات الكبيرة. لذلك، إذا كُنتَ تؤمن بالدّيمقراطية، فعليك من الآن أن تتّخذ التّرتيبات اللّازمة لتوزيع الممتلكات على أوسع نطاقٍ ممكن.

أو خُذْ بعين الاعتبار الحقَّ في التّصويت. مبدئيًا، هو امتيازٌ عظيم. لكن وفي الممارسة العملية، كما أثبته التّاريخ الحديث عديد المرّات، فالحقّ في التّصويت بحدّ ذاته لا يُعدّ ضمانًا للحرية. لذلك، وإن أردتَ تجنّب الدّيكتاتورية عن طريق الاستفتاء، قُمْ إذن بتفكيك التّجمعات الوظيفية (التي بالكاد تؤدّي أيّ وظيفة) في المجتمع الحديث إلى مجموعاتٍ ذاتية الحكم، متعاونة على مبدأ تطوّعي، تكون قادرة على العمل خارجَ الأنظمة البيروقراطية التي تفرضها الشّركات الكبرى والحكومة الكبرى.

أنتج الاكتظاظ السّكاني والتّنظيم المفرط المدينةَ الكبيرة الحديثة، والتي أصبحت فيها الحياةُ البشرية الحقيقية التي يميّزها تعدّد العلاقات الشّخصية شبه مستحيلة. ولهذا، لو أردتَ تفادي الفقر الرّوحي للأفراد ولمجتمعات برمّتها، اهجرْ كبريات المدن وأعِدْ إحياء مجتمع البلدة الصّغيرة، أو كبديل عن ذلك، حاول أنسنة المدن الكبرى من خلال خلق وإنشاء المعادلات

الحضريـة للبلـدات الصّغـيرة ضمـن شـبكة تنظيمهـا الميكانيـكي، كيانـات يمكـن فيهـا للأفـراد التّجتمـع والتّعـاون كأشـخاصٍ بالمعنـى الحـرفي للكلمـة، لا كمجـرّد تجسـيدات لا تتعـدّى معنـى الوظائـف المتخصّصـة الملحَقـة بهـم.

اليـوم، الإشـكال بأكملـه شـديد الوضـوح، كـما كان شـديدَ الوضـوح قبـل خمسـين عامًـا. منـذ «هيلـير بيلـوك» وصـولًا إلى السّـيد «مورتيمـر أدلـر»، ومـن أوائـل مرشـدي النّقابـات الائتمانيـة التّعاونيـة وصـولًا إلى مصلحـي الأراضي في إيطاليـا واليابـان الحديثَيْن، دافـعَ رجـالٌ ذوو نوايـا حسـنة لأجيـالٍ عـدّة عـن لامركزيـة القـوّة الاقتصاديـة، وعـن ضرورة تعميـم الملكيـة عـلى نطـاقٍ أوسـع. وكـم مـن المخطّطـات البارعـة الذّكيـة طُرِحـت بهـدف القضـاء عـلى مركزيـة الإنتـاج والعـودة إلى «الصّناعـة القرويـة» على نطـاق أصغر. ثـمّ أتـت دراسـات «ديـبروي» المفصَّلـة، الهادفـة لإعطـاء اسـتقلاليةٍ أكـبر وروح المبـادرة لأقسـامٍ مختلفـة، ضمـن منظّمـة صناعيـة كبـيرة واحـدة. كـما كان هنالـك النّقابيـون، مـع مخطّطاتهـم الهادفـة لتأسـيس مجتمـعٍ دونَ دول، منظّـم عـلى شـكل فدراليـات تضـمّ مجموعـات منتجـة تحـت رعايـة النّقابـات العمّاليـة. في أمريـكا، وضـع «آرثـر مورغـان» و«بيكـر براونيـل» نظريـة ممارسـة نـوع جديـد مـن المجتمـع الـذي يعيـش عـلى مسـتوى القريـة والمدينـة الصّغـيرة، ووصفاهـا بدقّـة.

قـدّم البروفيسـور «سـكينر» مـن جامعـة هارفـارد وجهـة نظر عـالم النّفـس للمشـكلة في « Two Walden»، وهـي مـن نـوع الرّوايـة المثاليـة اليوتوبيـة حـول مجتمـع مسـتقلّ ومكتـفٍ ذاتيًـا، منظّـم اعتـمادًا عـلى مبـادئ علميـة لدرجـة أنّـه لا يوجـد فيـه فـردٌ معـرّضٌ

لإغـراء معـاداة المجتمـع، وذلـك دون اللّجـوء إلى الإكـراه أو الدّعايـة المرفوضـة، كلّ فـرد يقـوم بمـا مـن واجبـه أو مـن واجبهـا القيـام بـه، وكلّ شـخص سـعيد ومبـدع وخـلّاق. في فرنسـا، أثنـاء الحـرب العالمية الثّانيـة وبعـد انتهائهـا، أنشـأ «مارسـيل باربـو» وأتباعـه عـددًا مـن مجتمعـات الإنتـاج المسـتقلّة التـي لا تخضـع لتـدرّج النّظـام الهرمـي، والتـي كانـت أيضًـا مجتمعـات للمسـاعدة المتبادلـة، ولعيـش الإنسـانية عـلى أكمـل وجـه. وفي الفـترة نفسـها، في لنـدن، أثبتـت تجربـة «بيكهـام» أنّـه مـن الممكـن إنشـاء مجتمـع حقيقـي حتّـى في كبريـات المـدن، مـن خـلال تنسـيق الخدمـات الصّحيـة مـع مصالـح المجموعـة الأوسـع.

نحـن نـرى إذن أن مـرضَ التّنظيـم المفـرط قـد شُخِّصَ بـكلّ وضـوح، وأنّـه قـد تـمّ أيضًـا وصـف العديـد مـن العلاجـات الكاملـة، وأنّـه قـد تـمّ القيـام بمحاولـة تطبيـق العلاجـات التّجريبيـة للأعـراض، وغالبًـا مـا تـمّ ذلـك بنجـاح كبـير. مـع ذلـك، وعـلى الرّغـم مـن كلّ الخطابـات الرّنانـة والممارسـة النّموذجيـة تلـك، لا ينفـكّ المـرض يتفاقـم ويـزداد خطـورة. نعلـم أنّـه مـن الخطـير السّـماح بتركيـز السّـلطة بـين أيـدي الأوليغارشـيا الحاكمـة؛ ورغـم ذلـك فالقـوّة في الواقـع تتركّـز في عـدد مـن الأيـدي يقـلّ في كلّ مـرّة. كـما نعلـم أنّ الحيـاة بالنّسـبة لمعظـم النـاس في كبريـات المـدن هـي حيـاةٌ نكـرة، شـديدة الضّآلـة شـديدة الصّغـر، بـل وأدنى مـن أن تكـون إنسـانيةً؛ ومـع ذلـك، تنمـو المـدن الضّخمـة بوتـيرة ثابتـة، كـما يظـلّ نمـط الحيـاة الصّناعيـة الحضريـة دون تغيـير. نعلـم أنّ الدّيمقراطيـة في مجتمـع شـديد الضّخامـة وبالـغ التّعقيـد تـكاد تكـون مجـرَّدةً مـن المعنـى تقريبًـا، باسـتثناء مـا تعلّـق بالمجموعـات المسـتقلّة التي

تكـون مـن الحجـم الممكـن التّحكّـم فيـه؛ ورغـم ذلـك، تـدار شـؤون كلّ دولـة وفي كلّ مـرّة بشـكل أكـبر مـن قِبـل بيروقراطيـين مـن الحكومـة الكبـيرة وكبريـات الـشّركات. فمـن الجـليّ إذن أنّ حـلَّ مشـكلة التّنظيـم المفـرط، مـن النّاحيـة التّطبيقيـة العمليـة، يـكاد يكـون أصعـب حتّـى مـن مشـكلة الاكتظـاظ السّـكاني. في الحالتـين، نعـرف جيّـدًا مـا يجـب القيـام بـه، لكـن في كلتاهـما لم نتمكّـن إلى غايـة الآن مـن التّـصرف بفعاليـة انطلاقًـا مـمّا حصّلنـاه مـن معرفـة نظريـة.

عنـد هـذه المرحلـة، يواجهنـا تسـاؤلٌ مقلـقٌ للغايـة: هـل نحـن نرغـب فعـلا في التّـصرف بنـاءً عـلى كـمّ المعرفـة التـي بحوزتنـا؟ هـل يعتقـد غالبيـة السّـكان أن الأمـر يسـتحقّ فعـلًا عنـاء بـذل كلّ هـذا المجهـود العظيـم بهـدف وقـفِ، وإن أمكـن ذلـك، عكـسِ الانجـراف الحـالي المـؤدّي نحـو سـيطرة شـمولية عـلى الجميـع، في جميـع المجـالات؟ في الولايـات المتّحـدة - وأمريـكا هـي الصّـورة التّنبؤيـة لمـا سـيؤول إليـه بقيـة العـالم الصّناعـي الحـضري في غضـون سـنوات قليلـة مـن الآن - كشـفت اسـتطلاعاتٌ حديثـة للـرّأي أنّ الغالبيـة مـن الشّـباب في سـنّ المراهقـة - ناخبـو الغـد- لا تؤمـن بالمؤسّسـات الديمقراطيـة، ولا تـرى اعتراضًـا عـلى فـرض الرّقابـة عـلى الأفـكار غـير النّمطيـة وغـير الشّـائعة، ولا تؤمـن بـأنّ حكومـةً مـن الشّـعب وإلى الشّـعب ممكنـة، وهـي غالبيـة سـتكون راضيـةً تمامًـا لـو كان بإمكانهـا فقـط الاسـتمرار في العيـش بالأسـلوب الـذي عوّدهـا عليـه الانتعـاش الاقتصـادي الكبـير، وأن تحكمهـا ضمـن نظـام طبقـي، أوليغارشـيا تكوّنهـا تشـكيلةٌ مـن الخـبراء المختصّـين. إنّـه لأمـرٌ محـزن، لكنّـه متوقّـعٌ وغـير مفاجـئ حقيقـة أنّ العـدد

الهائل من الشّباب مشاهدي التّلفاز والذين يتوفّر لهم غذاءٌ لائق بل وممتاز، في أقوى ديمقراطية في العالم على الإطلاق، غير مبالين تمامًا بفكرة الحكم الذّاتي، وغير مهتمّين البتّة بحرية الفكر أو حتّى الحقّ في المعارضة.

نقول «حرٌّ كالطّير»، ونحسد المخلوقات المجنّحة على قدرتها على الحركة غير المقيدة في الأبعاد الثّلاثة. لكنّنا ننسى في مقولتنا تلك طائر الدودو للأسف. كلّ طائر تعلّم كيف يقتات بشكل جيّد دون الاضطرار لاستخدام أجنحته سيتخلى سريعًا عن امتياز الطّيران، ليبقى متشبّثًا بالأرض إلى الأبد. وأمرٌ مماثلٌ ينطبق على البشر. إذا تمّ توفير الخبز بانتظام وبوفرة، ثلاث مرّات في اليوم، فسيرضى الكثير منهم بالعيش وهم يقتاتون على الخبز وحده - أو على الأقلّ على الخبز وعروض السّيرك وحدهما. «في النّهاية»، يقول كبير المحقّقين في قصّة دوستويفسكي التّعليمية: «في النّهاية، سيرمون بحرّيتهم تحت أقدامنا قائلين: «اجعلونا عبيدًا لكم، لكن أطعمونا». وعندما يسأل أليوشا كارامازوف شقيقه، راوي القصّة، ما إذا كان المحقّق الكبير يتحدّث بتهكّم، يجيبه إيفان: «مُطلقًا! بل يعتبره أنّه فضلٌ منه ومن كنيسته أنّهما انتصرا على الحرّية أخيراً، وقد فعلا ذلك من أجل إسعاد النّاس». نعم، من أجل إسعاد النّاس. ويصرّ المحقّق قائلًا: «ذلك لأنّه لم يكن هنالك في الوجود شيءٌ لا يطاق بالنّسبة للإنسان أو للمجتمع البشري كالحرّية». لا شيء، باستثناء انعدام الحرية؛ لأنّه وعندما ستسوء الأمور وتقلّ حصص الغذاء، ستلجأ طيور الدودو المؤرّضة من جديد لأجنحتها - فقط لتتخلّى عنها مرّةً أخرى عندما تتحسّن الأحوال ويصبح مربّو الدودو أكثرَ

كرمًا وتساهلاً من ذي قبل.

قد يكبر الشّباب الذين لا يكترثون الآن بالدّيمقراطية ليصبحوا في الغد مقاتلين من أجل الحرية. صرختهم القائلة: «أعطونا أجهزة التّلفاز والهامبرغر، لكن لا تزعجونا بمسؤوليات وأعباء الحرية»، قد تُفسِح المجال في ظلّ ظروف مغايرة لصرخة أخرى، مضمونها: «لن نقبل بغير الحريّة أو الموت». لو أنّ ثورةً كهذه حدثت بالفعل، فسيكون ذلك جزئيًا بسبب تأثير القوى التي لا يمكن حتّى لأعتى الحكّام السّيطرة عليها، وأيضًا لعدم كفاءة هؤلاء الحكّام، وعجزهم عن الاستخدام المتقَن الفعّال لأدوات التّلاعب بالعقول التّي وفّرتها العلوم والتّكنولوجيا، والتي ستستمرّ في توفيرها للطّاغية المستقبلي. بالنّظر لمعرفتهم القليلة ومدى قلّة تجهيزاتهم وضعفها، كان أداءُ كبار المحقّقين في محاكم التّفتيش جيّدًا جدًّا. لكنّ مَن خلفوهم من ديكتاتوريي المستقبل الذين هم واسعو الإطّلاع، والمتّبعون للمنهج العلمي بشكل صارم، فلا شكّ أنّهم سيكونون قادرين على أداء عمل أفضلَ بكثير منهم. يلوم المُحقّق الأكبر المسيحَ لأنّه دعا البشر ليكونوا أحرارًا، ويقول له: «لقد صحّحنا عملك، وبنيناه على الإعجاز والغموض والسّلطة». لكن الإعجاز والغموض والسّلطة أشياءٌ غير كافية لضمان الإبقاء على الدّيكتاتورية إلى أجل غير مسمّى. في حكايتي عن «العالم الجديد الشّجاع»، قام الديكتاتوريون بإضافة العِلم إلى القائمة، وتمكّنوا بالتّالي من فرض سلطتهم من خلال التّلاعب بالأجنة، وبردود أفعال الأطفال، وبعقول الأطفال والبالغين. وبدلاً من الحديث فقط عن المعجزات والتّلميح رمزياً إلى الألغاز والغموض، تمكّنوا من إعطاء رعاياهم

تجربـةً مبـاشرة عــن الألغـاز والمعجـزات عــن طريــق اســتعمال الأدويـة - وذلـك بهـدف تحويـل الإيمـان المجـرّد إلى نشـوة المعرفـة. سـقط الدّيكتاتوريـون السّـابقون بسـبب عجزهـم عـن توفـير مـا يكفــي مــن خبــز، وعــروض السّــيرك، ومــا يكفــي مــن معجــزات وغمـوض لرعاياهـم المتطلّبـين. كـما لم يحـوزوا فعـلًا عـلى نظـام فعّـال للتّلاعـب بالعقـول. في السّـابق، كان الأحـرار مـن المفكّريـن والرّجـال الثّوريـون في الغالـب نتـاج تعليـم أرثوذكـسي دينـي شـديد الصّرامـة؛ والأمـر ليـس بالغريـب إطلاقًـا، فالأسـاليب المنتهجـة مـن قبـل المعلّمـين الأرثوذكسـين كانـت ولا تـزال عديمـة الفعاليـة بشـكل كبـير. لكـن، تحـت حكـم ديكتاتـوري يعتمـد عـلى العلـم، سـيكون التّعليــم فعّــالًا حقًّــا- بالنّتيجــة الحتميــة أنّــه سينشــئ معظــمَ الرّجـال والنّسـاء ليحبّـوا عبوديتهـم، ولـكي لا يحلمـوا أبـدًا بالثّـورة. يبــدو أنّــه لا يوجــد أيّ ســبب وجيــه بإمكانــه جعــل ديكتاتوريــة شـمولية مبنيـة عـلى مبـادئ علميـة تسـقط.

في غضــون ذلــك، لا تــزال هنــاك بعــض الحرّيــة في العــالم. يبــدو أنّ الكثـير مـن الشّـباب لا يقـدّرون الحريـة حـقّ قدرها، وهـذه حقيقة؛ لكــن لا يــزال بعضنــا يؤمــن أنّــه لا يمكــن للبــشر أن يبلغــوا دون حريـة إنسـانيتَهم بصـورة كاملـة، وبالتّـالي فللحرّيـة قيمـةٌ عاليـة. ربّمــا القــوى التــي تهــدّد الحريــة الآن هــي أقــوى مــن أن تُقــاوَم لفـترةٍ طويلـة؛ لكـن سـيبقى مـن واجبنـا أن نبـذل قصـارى جهدنـا وأن نفعـل كلّ مـا في وسـعنا لمقاومتهـا.

ألدوس هكسلي

١٩٥٨

مراجعة المراجعة

هكسلي والجانب المظلم للمتعة

وُصِفت رواية العالم الجديد الشّجاع بأنّها «رواية أفكار»، لأنّ اهتمام هكسلي الأوّل والأخير فيها كان بالتّباين، التّناقض والصّراع المحتدم بين مختلف الافتراضات والنّظريات بدل الالتزام بتناقضٍ وصراع سطحي كلاسيكي بين مجرّد شخصياتٍ تهيم في أحداث رواية؛ فاتحًا بذلك باب النّقاش على مصراعيه حول صيرورة البشرية ومستقبلها من منظور تحليلي اعتمادًا على معطيات رغم محدوديتها إلّا أنّها ساهمت في مساعدته على الوصول إلى دراسة وافية، لا تزال صالحة إلى وقتنا هذا، بل ونحن في أشدّ حاجة لمثيلاتها في وقتنا هذا بالتّحديد.

لكنّه من جهة أخرى، لم يتوقّع أبدًا ظهور بوادر ذلك العالم المرعب بالسّرعة التي طرأت بها كلّ تلك التّحديثات والغزو التّكنولوجي العنيف، والمكانة الكبيرة التي احتلّها في حياة الأفراد والمجتمعات. لعلّ أحد الأسباب الرّئيسية التي جعلته يكتب المراجعة، والتي كانت في الأصل مقالات نُشرت في صحيفة السانداي تايمز، هو إدراكه المروّع أنّ العالم الذي بناه في الخيال أصبح حقيقة واقعة. فقد بدا في عزّ الحرب الباردة، ظهور نظام شمولي عالمي، شيوعيّ مثلا أو ديني أو عرقي على حدّ سواء، احتمالًا واردًا. وهكذا ، وفي عالم كان بالكاد يلملم أشلاءه بعد الحرب العالمية الثّانية، وعلى وشك الدّخول في

مرحلة من الدّمار الذّاتي أو الاستبداد، أحسّ هكسلي أنّ من واجبه البحث عن الحريّة معنًى ومفهومًا وإيجاد الأمل، ذلك العنصر المفقود في روايته.

قد يُتّهم هكسلي بأنّ كلّ ما أرده من خلال كتابته لهذه المراجعة هو إثبات أنّ تكهّنات جورج أورويل في رواية ١٩٨٤ كانت خاطئة مقارنة بنبوءة روايته، وأنّه كتبها نكاية فيه وغيرة من النّجاح السّاحق الذي حقّقته ولا تزال؛ إلّا أنّ الحقيقة غير ذلك. فقد شملت نظرةً تحليلية ثاقبة وصفت بدقّة مآل الإنسانية، وحاولت اقتراح مجموعة من الحلول والأفكار التي تعرفها البشرية منذ الأزل، وترفض تطبيقها أو تتجاهلها لأسباب تتجاوزنا كأفراد، ومجتمعات.

يعترف هكسلي بدقّة التّنبؤ الوصفي لراوية جورج أورويل ١٩٨٤، في عالم ما بعد الحرب. ويشير إلى أنّ القادة في البلدان الشّيوعية اعتادوا على السّيطرة والتّحكم في الفرد عن طريق التّخويف والعقاب، تماما مثل ما يفعل ممثّلو الأخ الأكبر مع سكّان عالم أورويل. لكن، في الاتّحاد السّوفيتي، أخيرا، وبعد موت ستالين، جاءت فترة جديدة مستحدثة، حاولوا فيها فرض السّيطرة على كبار القادة من خلال المكافأة والجزاء- تمامًا كما هو الحال في العالم الجديد الشّجاع الذي تكون فيه الهيمنة من خلال المتعة والتّنويم، والتّخدير المستمر-بالمعنى الأوسع للمصطلح. وهكذا، وما هذا إلّا مثال، يحاول دائمًا الاستشهاد بأمثلة حيّة لصالح نبوءته ضدّ نظام ١٩٨٤ الشّمولي.

يظلّ هكسلي مقتنعا بأنّ المستقبلَ شديد الشّبه بالعالم الجديد

الشّجاع، أكثر بكثير من شبهه برواية ١٩٨٤. «في الغرب، المتعة والتّسلية، مستعملان من قبل من هم في السّلطة، يتحكّمان في إنفاق النّاس، الولاءات والاتّجاهات السّياسية وحتّى الأفكار. والتّحكّم من خلال المكافأة يشكّل تهديدًا أكبر لحرية الإنسان لأنّه، على عكس العقوبة، يمكن إدخاله بطريقة لا واعية والحفاظ عليه إلى أجل غير مسمى، بموافقةٍ ودعم من الأشخاص المُتحكَّم بهم دون درايتهم....

...المثقّفون هم من نوع الأشخاص الذين يشترطون الأدلّة، ويُصدَمون من تناقضات المنطق والمغالطات. ينظرون إلى الإفراط في التّبسيط على أنّه خطيئةُ العقل الأصلية، كما هم في غنًى عن الشّعارات، والتّأكيدات غير المشروطة والتّعميمات التّعسفية التي هي في الحقيقة مخزون صانع البروباجاندا...»

على كلّ من يرغب في كسب الحشود إلى جانبه أن يعرف المفتاح الذي سيفتح باب قلوبها ... أي بلغة خطابٍ ما بعد فرويدي، عليه أن يعرف بابَ لاوعيها... ليفتحه ثمّ يطبق عليه ويحكم عليه قبضته.

ولذلك، يحذّر هكسلي قرّاءه أيضًا من أنّهم سيجدون لا محالة طريقةً يقنعون بها أنفسهم لقبول عالم كانوا سيرفضونه قطعيًا لو أنّهم كانوا فعلًا واعين تمام الوعي بطبيعته الحقّة.

محدِّدًا عدو الحريّة على كونه البروباجاندا، يجد هكسلي الحلَّ الذي غاب عنه في روايته، وهو التّعليم. التّعليم من أجل أن يصبح الفرد قادرًا على التّعرّف ومن ثمّ مقاومة البروباجاندا والدّعاية التي تستهدف عقله محاوِلةً محو جميع مقوّمات

الحكم المنطقي، حاثّة إيّاه على الاختيار الذي يبدو سهلًا دون التّمكن من الوصول إلى الاستنتاج الذي مفاده أنّ العواقب ستكون أوخم بطبيعة الحال عليه كفرد، وعلى الإنسانية ككيان.

مجموعة المقالات هذه، رغم مرور أزيد من ٦٣ عامًا على كتاباتها، إلّا أنّها صرخة كي نستيقظ. والخيار لنا في التّمعن في تفاصيلها المرعبة، أو جعلها مجرّد رسكلة في القرن العشرين للعنة كاساندرا، نداء استغاثة لا يجد آذانًا صاغية. أليس الموضوع آنيًا حينما يقول:

«في الدّعاية التّجارية، ما هو غير متّسق هو أنّ مبدأ الرّمز المبهر يُفهَم بشكلٍ واضح. لكلّ صانع دعاية قِسْمُه الفنّي الخاص به، وباستمرار، تُبذَل محاولاتٌ لتجميل اللّوحات الإعلانية بملصقاتٍ ملفتة للنّظر، وتزيين صفحات المجلّات الإعلانية برسومات وصور تنبض بالحياة. لا وجود لروائع فنيّة في هذا المجال، ذلك أنّ الرّوائع لا تروقُ أو تخاطب إلّا جمهورًا محدودًا، بينما تسعى الدّعاية التّجارية لجذب الأغلبية السّاحقة. كما هو متوقّع، الأطفالُ أشدّ تأثّرًا بالدّعاية...»

هل يمكن استعمال المتعة كأداة لحرمان الأشخاص من حرّياتهم؟

طبعًا نحن الآن نعيش في العالم الجديد الشّجاع، والسّوما، ذلك العقار المسكّن الذي يتناوله سكّان عالمه، متوفّر لدينا وفي متناول اليد في شكل العديد من الأشياء، التّكنولوجيا، شاشات الهواتف والتّلفاز، مواقع التّواصل التي لا تتوقّف عن تحفيز العقل وزيادة إدمانه، العقاقير، الاستهلاك، المتعة الآنية، الصّورة في كامل قدرتها على التّلاعب بالعقل الباطن، السّكر والغذاء

القاتـل واللّهـو والألـوان والحلـم والحيـاة الرّغيـدة المعروضـة في كلّ الأماكـن؛ حيـاةٌ يصبـو لهـا ٩٩ بالمائـة مـن سـاكنة المعمـورة، دون التّمكـن أبـدًا مـن الحصـول عليهـا.

طبعًـا لم تكـن كلّ توقّعاتـه صحيحـة، فـلا يجـب أن ننـسى أنّ شـيئًا بسـيطا مثـل حبـوب منـع الحمـل، لم تكـن قـد اختُرِعـت آنـذاك. لـذا يتعـيّن أخـذ محدوديـة المعرفـة التـي بنـى عليهـا فرضيّاتـه في عـين الاعتبـار.

التّأمّـل والرّجـوع إلى بسـاطة الإنسـانية حـين منشـئها، إلى الأشـياء البسـيطة هـي مـن بـين الحلـول المقترحـة لمواجهـة عديـد المشـاكل التـي تخنـق عـالم الأمـس، اليـوم وعـالم الغـد. لكـنّ هكسـلي يـصرّ عـلى أنّ الأمـل يكمـن فعـلًا في العقـل اليقـظ، ذاك المسـتعدّ لإصـدار أحكامـه بنفسـه، لا ابتـلاع وتبنّـي الأحـكام المسـبقة والآراء الجاهـزة الصّـادرة مـن الهيـاكل التـي فُـرِضَ عليـه طـوال حياتـه اعتبارهـا المرجـع الصّحيـح وتقبّلهـا بتلـك الصّفـة. يمكـن للحريّـة الفرديـة، التّعاطـف والـذّكاء -وهـي الصّفـات المفقـودة في الرّوايـة الأصليـة بالـذّات- وحدهـا أن توجّـه العقـل البـشري الواعـي بالكامـل إلى مسـتقبل بـشري حـرّ حقّـا، وإنسـانيّ حقّـا.إذ يبقـى الأمـل قائمًـا مـا دام هنالـك تفكـير وتسـاؤل، وابتعـاد عـن دوائـر الأمـان.

فهل سَنُفيق؟

المترجم

الجزائر/٢٠٢١



فهرس



نُشرت رواية "العالم الجديد الشّجاع" سنة 1932؛ وقد ألهمت أحداثُ تلك الحقبة أفكارَ تلك الرّواية الخيالية التي وُصفت بأنّها إحدى أفضل الرّوايات على الإطلاق. بعد مرور سبعة وعشرين عامًا كاملة، أي سنة 1958، راجعها ألدوس هكسلي في مجموعة من المقالات أعاد من خلالها دراسة أفكار الرّواية وتوقّعاتها، في ضوء الأحداث التي وقعت منذ النّشر الأوّل لها.

من خلال اثني عشر فصلًا، يتطرّق الكاتب للمشاكل التي تواجه البشرية، ويطابقها لتنبّؤاته التي تحقّقت في ظرف زمني أقصر بكثير ممّا توقّع؛ مركزًا بشكل أساس على البعد الاجتماعي للتّنظيم، وعلى تأثير وسائل وطرق الإعلام والاتّصال في خلق مجتمع يفضّل الوهم على الواقع.

قد يُتّهم هكسلي بأنّ كلّ ما أراده من خلال كتابته لهذه المراجعة هو إثبات أنّ تكهّنات جورج أورويل في رواية 1984 كانت خاطئة مقارنة بنبوءة روايته، وأنّه كتبها نكاية فيه وغيرة من النّجاح السّاحق الذي حقّقته ولا تزال؛ إلّا أنّ الحقيقة غير ذلك. فقد شملت نظرةً تحليلية ثاقبة وصفت بدقّة مآل الإنسانية، وحاولت اقتراح مجموعة من الحلول والأفكار التي تعرفها البشرية منذ الأزل، وترفض تطبيقها أو تتجاهلها لأسباب تتجاوزنا كأفراد، ومجتمعات.

"مجتمعٌ لا يقضي معظمُ أعضائه جزءًا كبيرًا من وقتهم في عيش الواقع الآنيّ الرّاهن أو في مستقبلٍ يمكن توقّعه بشكل منطقي، بل في مكانٍ آخر، في عوالمَ أُخرى لا تمّت للحقيقة بصلة، في الرّياضة والعروض والمسلسلات التّلفزيونية، وفي عوالم الأساطير والخيال الميتافيزيقي، هو مجتمعٌ سيجد صعوبةً في مقاومة تجاوزات أولئك الذين سيتلاعبون به ويسيطرون عليه...

مع فهمٍ أفضل لفنّ وعلم التّلاعب، سيتعلّم ديكتاتوريو المستقبل بشكل لا يترك مجالًا للشكّ كيفية دمج هذه التّقنيات مع وسائل الإلهاء المستمر، والتي تهدّد الآن في الغرب بأن تُغرِقَ في بحرِ اللّامعنى الدعايةَ العقلانية التي تُعدّ ضرورةً للحفاظ على الحريّة الفردية، والإبقاء على المؤسّسات الدّيمقراطية".

ألدوس هكسلي.

مع التّقدّم في قراءة هذا الكتاب، سيصدمنا التّشابه بين العالم الجديد الشّجاع، وعالم آخر ليس بالغريب عنّا، عالمنا الحالي، عصر التّواصل الآنيّ، عصر اللّذة والمتعة والنّسيان العمدي.

كلمة الناشر





منشورات 2022



خطوط وظلال للنشر والتوزيع

الأردن، عمان، جبل الحسين، بناية (20)

ص.ب: 11190، عمان 925220 الأردن

تلفون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+

email: dar5otot@gmail.com

دار خطوط للنشر والتوزيع